ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 11 مايو 2021

تاريخ فكرة التسامح

(من العصر القديم إلى العصر الوسيط)

ألبير شيغيل

ترجمة: المبارك الغروسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021

All rights reserved © 2021

تاريخ فكرة التسامح[1]

(من العصر القديم إلى العصر الوسيط)

بقلم: **ألبير شيغيل**[2]
ترجمة: **المبارك الغروسي**[3]

---

1 - Cherel, Albert « Histoire de l'idée de tolérance »,*In*
Revue d'histoire de l'Église de France, Année 1941, Volume 27, Numéro 112 pp. 129-164
R*evue d'histoire de l'Église de* France, Année 1942 , Volume 28, Numéro 113 pp. 9-50

2 - لغوي وفيلولوجي فرنسي

3 - مترجم مغربي

ملخص البحث المترجم:

يغوص كاتب البحث في تاريخ فكرة التسامح (في أوروبا بالخصوص)، حيث يعرض مظاهر وتصورات ووقائع المتعلقة بالتسامح ونقيضه التعصب، منذ العصور القديمة الإغريقية والرومانية إلى بداية العصور الحديثة. يمضي البحث في رصد تاريخي كرونولوجي لسيرورة التفكير في التسامح مع المختلف والمخالف فكرا وسلوكا. ولا يقتصر على الفكرة النظرية، بل يرصد مدى ممارستها في واقع المجتمعات الأوروبية على مدى التاريخ.

يرصد الفصل الأول مسألة التسامح في العصور القديمة مع اليونان والرومان الأولين، ليسجل مواقف الفلاسفة والحكام والمجتمع، ويربط ذلك بالوقائع الموضوعية. ولا يستسلم الكاتب للجاهز من الـأفكار في تسمية هذا العصر بعصر التسامح وغيره بالتعصب، إذ يدقق في المسألة، ويسجل مدى التعصب في العصور المشهورة بالتسامح؛ أي عصور ما قبل المسيحية، ويبين أبعاد التسامح خلال الظروف وبين الأوساط التي وصفت عادة بالتعصب.

وينتقل الباحث في الفصل الثاني إلى عصر الانشقاقات والارتدادات، خلال العصور الأولى للمسيحية، في علاقة الرومان واليهود بالديانة المسيحية الجديدة، حيث يقف عند مواقف وقرارت الحكام الرومان وتطورها تجاه مختلف مكونات الإمبراطورية حديثة العهد بالنشوء، وكذا عند نظريات الكنيسة الأولى.

أما في الفصل الثالث، فيتطرق للعصور الوسطى، ليرصد مدى تبني التسامح، والتأرجح بينه وبين التعصب؛ مع تصحيح النظرة المتداولة عن عصر وسيط مغال في التطرف في وعن كنيسة متعصبة بالضرورة في محاكم التفتيش واضطهاد أتباع الديانات والهرطقة، دون نفي للحقيقة التاريخية التي تبقى نسبية إلى حدود قصوى. وغيرها من الأفكار والمحددات التاريخية المرتبطة بفترة حراك تاريخي علمي وديني لم تغب ظلالها على اعتماد التسامح ونقيضه فكرة وممارسة، ومختلف تصوراتهما في الأوساط الدينية والعلمانية.

يعتبر البحث مهما من حيث إنه يقدم جردا تاريخيا وإشكاليا لفكرة التسامح عبر التاريخ الغربي، ويؤصل لنتائجها، ويناقش علاقاتها بالأحداث التاريخية وبالنقاشات الاجتماعية والفكرية في مختلف الأزمنة.

وتكمن أهمية البحث بالنسبة إلينا من الناحية الفكرية في ضبطه لهذا المفهوم الذي غالبا ما يستعمل في التداول العام دون ضبط؛ وكذا في رصد وإبراز أبعاده النسبية؛ كما أن جانبه التاريخي الغني، يفيد عالمنا

الحاضر في طرح أسئلة طرحها الفكر الأوروبي والواقع الأوروبي خلال أزمنة تسامحه وأزمنة تعصبه، لعلها تقدم أجوبة لإشكالات ظاهرة التعصب المعاصرة بيننا، ويوضح لنا أبعاد الرؤية الفكرية والمعالجة الواقعية لهذه الآفة المتشعبة الأبعاد.

***

إن موضوع تاريخ فكرة التسامح نفسه ليس جديدا؛ لكن هل تم التطرق إليه، إلى حد الآن، بكل ما تقتضيه دقة الموضوع من اهتمام وتدبر وتفاني البحث العلمي الرصين؟

في عام 1911، جرى رسم الخطوط العريضة لهذ التاريخ ببراعة؛ لكن التراشق، الذي كان مهذّبا بقدر ما كان حازما، والذي كان طرفاه **إيف دي لا بريير (Yves de la Brière)** و**بيير إمبارت دولاتور (Pierre Imbart de La Tour)**، صنع متفرجين فقط، حيث إن اهتمام المؤرخين لم يكن ينكب بتاتا على المذاهب أو الأفكار المتخاصمة في هذا الباب...

نعم، لقد كانت مبارزة متحمسة ومحمسة. في عام 1911، لم تكن نار أزمة النزعة الحداثية[1] قد خمدت، ولم يكن قد هدأ أعداء لائحة الكتب المحرمة كنسيا (Index)؛ فقد نزلت الإدانة البابوية على تيار مارك سانغنييه، تيار السليون (le *sillon*) التوفيقي بين الكنيسة والجمهورية[2]، ندّدت بمرور «النفس الثوري» على هذا الشكل الجديد. فنجد على صفحات **مجلة رجال الدين الفرنسيين (*Revue du Clergé Français*)**، في سنة 1907، أن الراهب تورميل يتعقب أتباع محاكم التفتيش ليمدد مرارات المؤرخ الأمريكي ليا **Lea**، المتخصص في محاكم التفتيش، وبالخصوص بطلهم الدومينيكاني **أويغني**[3]. وضمن **حوليات الفلسفة المسيحية**، كان إدوارد جوردان (***Edouard Jordan***) يجتهد في تحديد **مسؤولية الكنيسة في قمع البدعة والهرطقة في العصور الوسطى** [4]؛ في حين لم يكن فانكارد (Vancardard) في مؤلفه **دراسات في النقد وتاريخ الأديان**[5] العذر لديوان التفتيش المقدس. وأخيرا، يرفض لابرطونيير (Lucien Laberthonnière)، في كتابه المنفعل والدقيق **الكاثوليكية والفلسفة الوضعية (*Positivisme et catholicisme*, 1911)**، أن تتمتع الدولة بأي حق «**في فرض نوع من العقيدة الصحيحة أو ادعاء فرضها نهائيا من خلال إكراه خارجي**»، ثم يضيف: «**إن وسائل المسيح وحدها، دون غيرها، التي تناسب الكنيسة، فقط من خلالها يمكنها إتمام مهمتها؛ لأنه وحده الإيمان يولد الإيمان، والمحبة وحدها تنجب المحبة؛ لأن النفوس لا تأخذ غلابا، فلو كانت تؤسر ما كانت أرواحا ونفوسا؛ يجب جعل الأرواح تهب نفسها**»[6].

---

1 - الأزمة الحداثية، أو الجدال الحداثي، هي نزاع أفكار داخل الكنيسة الكاثوليكية بين أنصار التقليد في التعليم السكولائي ومؤيدي الحداثة الذين دعوا إلى القطيعة مع التعليم الكاثوليكي التقليدي، متأثرين بالأفكار والنظريات الفلسفية والتاريخية، والداعين إلى حرية الاعتقاد. (المترجم)

2 - سيلون هي حركة سياسية وأيديولوجية فرنسية أسسها مارك سانغنيه (1873-1950) في عام 1894. وتهدف إلى جعل الكاثوليكية أقرب إلى الجمهورية، وتقدم للعمال بديلا عن الحركات اليسارية «المادية» المعادية للكنيسة. (المترجم)

3 - Revue du Clergé Français, janvier- mars 1907

4 - Annales De Philosophie Chrétienne, septembre-octobre 1909. et La Responsabilité De L'église Dans La R - pression De L'hérésie Au Moyen-Âge

5 - Vancardard, les études de critique et d'histoire religieuse.

6 - Lucien Laberthonnière ,Positivisme et catholicisme, 1911. p.p.276-281

في هذه اللحظة، تدخل **بيير إمبارت دي لا تور** ليعزز سلطته بصفته كنسيا فيلسوفا بسلطة صفة المؤرخ فيه. وكان يسجل دون مواربة في دوريته **نشرة الأسبوع** (*Bulletin de la semaine*) «الخلاف الأولي ذا الطبيعة اللاهوتية»، الذي كان يفصل بين مجموعتين من المفكرين الكاثوليكيين في ما يتعلق بالسياسة الدينية. فاستهدف بسخريته وازدرائه واستنكاره أنصار **الأطروحة**: أي أطروحة حق الكنيسة في استعمال الوسائل الدنيوية في القهر والإجبار وفي اللجوء إلى **الذراع الدنيوية**، ضد المبتدعين المهرطقين. ويصرح بأنه «في عز العصر الحديث، وفي عهد يبدو فيه أن الفصل بين الدول والكنيسة وبين الدنيوي والروحية، قد صار واقعا لا رجعة فيها، تُصيبنا الحيرة ونحن نرى أن هذه الأطروحة قد انبعثت من رمادها لتولد من جديد»[7].

- إن هذه الأطروحة لم تمت أبدا يوما، يجيب **إيف دي لا بريير**؛ ففصل الكنيسة عن الدولة، الذي أقرته الدولة الفرنسية سنه 1905، يبقى بلا قيمة في مواجهة حق وواجب الكنيسة ومبدئها الذي أعلنته دائما بخصوص التعاون الواجب والضروري بين الدولة والكنيسة. فالمبدأ «**الذي يجعل قوة القوانين الإنسانية في خدمة الدين الحق، في حدود ما تسمح به الإمكانات الحقيقية واعتبارات الخير الأعظم**». ويعتبر هذا المبدأ العقيدة الرسمية للكرسي الرسولي على مدى قرون خلت. وسيكون من الشر ومن الظلم «**أن يُعترف للدعاية إلى الظلال والعقيدة الزائفة الحقوق نفسها والحريات نفسها كما للدعاية إلى الحق**» يمكن للتسامح مع الفكرة الخاطئة أن يطلبه الاحتراس السياسي؛ لكنه يجب أن يبقى «**في حدود ما تستدعيه القضية التي تبرره؛ أي المصلحة العامة**»[8].

- لكن القوة في جوهرها «وثنية»، يجيب **بيير إمبارت دي لا تور**، ثم إنه في واقع حالنا اليوم تتمتع «الشخصية الإنسانية» بحقوق أكبر من الحقيقة؛ كما أن «**غاية الدولة لا يمكن أن تكون إلا نفعية**»[9].

- إن قوة القوانين الإنسانية، يوضح **إيف دي لا بريير**، لا يمكن أبدا جعلها في خدمه الدين الحق دون نظر وبصيرة: فإجبار يهودي أو مسلم أو ملحد على التعميد، وإكراهه من لا يؤمن بالمسيح على المسيحية، أمر لم تسمح به الكنيسة أبدا ولم تأمر به يوما. إن ما قبلته الكنيسة هو أن تفرض على المسيحيين المتمردين عليها عقوبات دنيوية تحددها الدولة المسيحية الكاثوليكية؛ وأن تفرض على المسيحيين المذنبين عقوبات دنيوية تصدرها الكنيسة نفسها: «**إنه لفرض على الدولة، باعتبارها دولة، أن تسهر على تمجيد المجتمع**

7 - Bulletin de la semaine, 2 et 9 août 1911

8 - مقولة ليون الثالث عشر. في منشوره الحرية السامية

Libertas Præstantissimum ; Études, 5 oct. 1911, p. 128; et p. 131

9 - Pierre Imbart de La Tour, *Réponse aux Études. dans les Études*, 20 déc. 1911, p. 860-867

لله، رب المدينة الدنيوية وسيدها وسلطانها». وإذا كانت الدولة المتحررة لا تعاقب إلا الأفعال المخالفة للأمن العام، فإن الدولة الكاثوليكية، ولأنها أكثر حكمة وأكثر عدلا، ستعاقب الدعوة إلى الضلال والتبشير بعقائد الزيف...

كان **إيف دي لا بريير** يتميز بالبراعة في طبع الدفاع عن محاكم التفتيش بنوع من الشهامة الفروسية. يكتب في الخاتمة: «**كم هو ممتع ولذيذ أن ترافع من أجل الحقيقة الكاملة مثل الكنيسة ومع الكنيسة؛ وخصوصا حين لا توافق هذه الحقيقة ذوق الجمهور؛ وخصوصا أيضا حين تكون هذه الحقيقة غير مفهومة؛ وخصوصا كذلك حين تكون هناك مجازفة في الشهادة لفائدتها**».[10]

كانت لهذا الجدال (الذي صرح في إطاره **بيير إمبارت دي لا تور** بأن الكتاب الأهم الذي سيحلو له كتابته هو عن تاريخ فكرة التسامح) فائدة وميزة أولى أفادت الجمهور المثقف الذي تابعه: ألا وهي تحديد مفهوم التسامح. كان التسامح في المتداول من اللغة يدل أحيانا على فضيلة رخوة ومتراخية، وعلى تنازل واستسلام أو ركون للصمت من أجل الوفاق المدني، في مظهر وشكل سياسي لروح المحبة المسيحية؛ وأحيانا أخرى على مقت كل إشكال التبشير. كان البعض يجعل في هذا المصطلح كل ما جمعه من إحساس بتساوي الأرواح الإنسانية في قيمتها؛ والبعض الآخر كان يجهر بالإعلان أنه يجب على الديانات أن تتحمل بعضها بعضا، باعتبارها كلها حقيرة القيمة. ومنذ ذلك الوقت، صار يتم استحضار المعنيين الأصيلين والجوهرين لكلمة **التسامح** في لغة الكنيسة: التسامح الفعلي، «التسامح المدني»، والتسامح القانوني، «مذهب التسامح الواسع» (*tolérantisme*). التسامح المدني هو موقف سياسي تقبل به الكنيسة في بعض الأحيان؛ أما «مذهب التسامح الواسع» فهو بدعة وهرطقة؛ لأنها تقتضي قبول فكرة أنه كل العبادات وكل الأديان متساوية في نظر الله.

ثم إنه وقتها قد عمّ الإحساس بأن ضمن مسألة التسامح هناك مسائل أخرى كان يجب أن تطرح للنقاش منذ زمان، أي: علاقة الكنيسة والدولة، وحرية العقيدة، حياد المدرسة، علاقة الدولة بالأخلاق، المفهوم اللاهوتي والشعور الديني، علم النفس الخطيئة، مسألة خلاص الكفار ومسألة الغفران من خارج الكنيسة، وهي كلها أسئلة فكرية مسيحية لها ارتباط وثيق بدراسة فكرة التسامح. وهذا يبرز الأهمية المركبة لهذا البحث ولصعوبته المحيرة.

خلال تاريخها الطويل عبر العصور المسيحية، مرّت فكرة التسامح بالمراحل التالية التي أعتقد أنها أساسية:

10 - Ivees de la Brière, Réplique à M. Imbart de La Tour,dans les Études, 20 déc. 1911, p. 895

هل يتضمن الفكر القديم مصادر للتسامح أو للتعصب؟ باسم أية مبادئ بعينها وبدافع أية مشاعر تكرست في قواعد للحياتين الخاصة والعامة، كان العقل الوثني يتقبل المسيحيين أو يضطهدهم؟

ما هي مواقف مفكري الكنيسة وآبائها الأولين تجاه الوثنيين؟ وما هي المواقف التي أوصوا بها أو طلبوها من السلطة السياسية؟

وخلال القرون الوسطى، ماذا كان مضمون عقيدة التعصب وحيثياته وتفاصيله؟

وهل خفت حدة عقيدة التعصب هذه في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر؟ وما هي الشروط الطارئة التي أدت إلى خفوتها في تلك الفترة التي عرفت بتفتحها الفكري؟

ما حقيقة «الحرية» البروتستانتية في القرن السادس عشر؟ كيف تطورت هذه الحرية في ظل الإصلاح الديني قبل أن تتحول إلى حرية الحكم العقلي؟

ما طبيعة علاقات السلطة المدنية، من قاض وحاكم، في القرن السابع عشر، مع السلطات الروحية، ومع أخلاقها ورغبتها في الهيمنة؟

كيف ازدهرت فكرة التسامح في القرن الثامن عشر بتطور المذهب السوسينياني والتصوف البروتستانتي، والمذهب الربوبي الإنجليزي... وما الزخم الذي أخذته بسبب باقي أفكار العصر؟

وما هي مبادئ مختلف تيارات القرن التاسع عشر؟

I- التسامح والفكر القديم

إن المقابلة بين التعصب المسيحي والتسامح الوثني شكلت طويلا فكرة نمطيه عند فلاسفة القرن الثامن عشر وعند الأجيال التي تربت على قراءة كتبهم. فإن إجبار سقراط على تجرع السم، واضطهاد المسيحيين الأوائل من قبل الرومان، لتشهد ضد هذه الروح المتصالحة والمتسامحة المزعومة عند الوثنيين. صحيح أننا نوافق **أرنست رينان** حين يقول، إن أول شهداء المسيحية كانوا متعصبين؛ لأنهم لم يميلوا إلى الاحتفاظ بإيمانهم في السر دون الجهر به؛ لكن جلاديهم لم يكونوا إلا رجال نظام يحركهم مذهب الشك.

يبدو أن عدم التسامح في أثينا مع كفر سقراط كان حادثا عابرا في تاريخ المدينة، ولم تكن التهمة، وهي إفساد الشباب، لتصل إلى درجه الإعدام لولا أن بعض الأحقاد دخلت على الخط وازدادت على الأمر. لم

ينخرط سقراط في مشاعر الجمهور، وكان يفضل إلهامه الإلهي الخاص على الإلهة الوطنية. لقد كان عدم تسامح أثينا معه فعلا ديمقراطيا ووطنيا أكثر من كونه فعلا دينيا.

لم يكن أهل أثينا يهتمون بالحقيقة الدينية أو بالحقيقة الواحدة. يستحيل على المرء ألا يركن إلى الخشوع أمام الجلالة الفلسفية وأمام تماثيل النحات **فيدياس** المبهرة. إننا نتمثل **فيدياس** متأملا يتصور، ثم ينجز تماثيل الآلهة كنوع من السمو إلى القوة الكاملة الجمال والنبل. فهل رأى في أثينا شيئا آخر غير ديكور عجيب؟ فديانتها الغنية بالعادات وبالاحتفالات وبالقصص الأسطورية كانت فارغة من كل مضمون فكريّ.

ففي القرن الخامس الإغريقي، وهو القرن العظيم الذي يشبه عصر الأنوار عندنا، وفي زمن الازدهار والخفة والعظمة الإنسانية، ألم يكن عدم الاهتمام بالآلهة والاعتقاد الراسخ في قوة الإنسان وعظمته المطلقة، وعدم جدوى حقيقة بعينها في واقع الإنسان؛ ألم يكن هذا هو أسس التعليم السفسطائي: «الإنسَان مقياس كل شيء: هو معيار إدراك وجود الأشياء الموجودة، وعدم وجود الأشياء غير الموجودة»؟ كل القيم قابلة للتغير على هوى عقول أكثر توقدا وجماعات أكثر قوة. الفضيلة الوحيدة هي المهارة في الإقناع؛ والمبحث الوحيد الجدير بالإنسان هو تعلم الفصاحة والخطابة. يحتفي **جورجياس** ويمجد تفوق الإنسان «**الذي يمتلك زمام الخطابة**» على الإنسان «**الذي يمتلك الكفاءة**». أما **بروتاغوراس** «الكافر» بطريقة مغايرة عن كفر سقراط، فيقول: «**لا يمكنني أن أعرف ثمة هناك آلهة أم لا، ولا أن أعرف شكلها؛ فتلك المسألة ملتبسة وغير واضحة، والحياة قصيرة جدا لمعرفه ذلك**».

كان سقراط يطرح أسئلة محيرة على هؤلاء النفعيين وعلى من يتبعهم عن طيب خاطر من الشباب. كان يقول لهم ما مجمله: «ألا يجب أولا اكتساب المعرفة، قبل المبادرة إلى فعل من الأفعال» كانت طيبته الطبيعية تستأنس الحاجة إلى حقيقة ما، في حين أن مثال حياته ومثال موته يؤكدان إيمانه الراسخ في وجود واقع مختلف عن الفعل الفردي وعن الفعل البشري المتغير. لا يعني ذلك أن إلهامه الديني قد أوحى له بعقيدة بعينها، ففي نظر سقراط «**زخم الفكر أهم من نتيجته**». وإن ثقته في وجود الحقيقة أو توقه إلى تلك الثقة كانت، على ما يبدو، هي روح روحه[11].

لم تفتأ هذه الثقة تتعزز عند تلميذه أفلاطون. لو صدقنا ما باح به في سنه المتقدمة، فإن أفلاطون في طفولته لم يكن يسمع ذكر الآلهة في بيت أبويه، إلا في خشوع وإيمان وورع. استدعاه الميل إلى العمل

11 - كانت آراء بريهيي في كتابه تاريخ الفلسفة (Bréhier, *Histoire de la philosophie*, Alcan,1931) حول سقراط وأفلاطون واضحة وصريحة تستحق التسجيل: «يعطي الدين لسقراط الإيمان والثقة في نفسه؛ لكنه لا يجني منه أي نظرة عقلية تتعلق بمصير الإنسان». وفي محاورة القوانين، صار الفيلسوف «نوعا من مفتشي محاكم التفتيش الذي يبحث عن خلاص أرواح أبناء المدينة، فيفرض على السكان الإيمان بالآلهة أو السجن المؤبد»؛ وبالرغم من ذلك فبالنسبة إلى أفلاطون «زخم الفكر أهم من نتيجته».

السياسي في سنوات المراهقة. ولم يفارقه، أبدا، الطموح أو الحلم الحي بإصلاح سياسي؛ لكن بحثه عن إرساء أسس روحيه للمدينة سيصبح أكثر وضوحا، حيث يقول: «**لا خلاص للمدينة إلا بوصول الفلاسفة محبي الحكمة إلى السلطة، أو تحول أهل السلطة إلى فلاسفة محبين للحكمة**» سيفشل في الإصلاحات الفعلية في **سرقوسة** إلى جانب حاكمها **ديونيسيوس الأول**؛ لكنه سيحدث الناس، في **أكاديميته** بأثينا وفي **محاوراته**، بهذه الحقيقة الفلسفية والسياسية التي يحبها عقله بنبرة خشوع ووثوق المؤمنين.

هنا، يثار سؤال تسامحه أو تعصبه؛ في محاورتي **الجمهورية** و**القوانين**، يقدّم لنا أفلاطون فكرته وإرادته في هذا الباب. لا يقبل أفلاطون بأن يكون الملك غير آبه بالحقيقة وبالزيف الغيبي، أو ما يسمى «**اللاهوت**». ويوضح: «**لا يمكن أن نستدعي لحكم مدينة من لا يستطيع معرفه كل ما يجب معرفته عن الآلهة**».

الآلهة «هي **الأعظم من بين كل الحراس**». ثلاثة عناصر ثابتة في شأنها: «**وجودها، وتدبيرها لشؤون العالم، وعدلها الذي لا ينثني**». من ثمّ، يبقى من المشروع اعتماد قوانين ضد الكفر.

سيكون على المواطنين الشهود بالتبليغ عن الكفار بما شهدوه من كفرهم قولا أو عملا. فيتم تقديم هؤلاء الملحدين أمام محكمة خاصة و«**سيكون السجن جزءا من العقوبة في جميع الأحوال، وحيث إنه توجد ثلاثة سجون في الدولة: سجن في مكان الساحة العامة لأغلب الأحوال وذلك لاحتجاز أشخاص العامة؛ والثاني بالقرب من مكان اجتماع القضاة ليلا هو السجن الذي سنسميه محل الإصلاح والتوبة؛ وسجن ثالث وسط البلاد في مكان مقفر يكون الأكثر استيحاشا، وسوف نسميه: سجن العذاب**» (محاورة **القوانين**: الكتاب العاشر).

هناك ستعاقب جرائم الكفر، بحسب درجة فظاعتها وخطورتها. الملحدون النزهاء الميالون بطبعهم إلى معاداة الظلم واللذين يعاشرون أهل الخير عن طيب خاطر يستحقون عقوبة؛ لكن أن تكون خفيفة. أما غيرهم من الملحدين اللذين هم تحت رحمة أهوائهم، والذين «**تجعلهم قدرتهم الكبيرة على فهم الأشياء الخفية خطيرين**»، فهم يستحقون أكثر من ميتة واحدة، بل موتا متعددا. من لا يعترفون بتدبير العناية الإلهية للعالم أو «**يعتقدون أنه من السهل إخضاع الآلهة**» بسبب الحماقة واختلال العقل سيقادون إلى محل الإصلاح لمدة لا تقل عن خمس سنوات. إذا عاد السجين إلى صوابه بعد نهاية مدة الحبس، يتم إطلاق سراحه؛ وإلا فإن عقوبة الموت تنتظره. أما من ينشرون الزيف والضلال، فمصيرهم كما يأتي:

«أما الآخرون الذين صاروا مثل الدواب المفترسة، فلا يكتفون بإنكار وجود الإلهة وإنكار تدبيرهم لأمور العالم وإنكار صرامة عدالتهم، بل بازدرائهم البشر يفتنون أغلب الأحياء بجعلهم يتوهمون ويعتقدون أنه بإمكانهم استدعاء أرواح الأموات، ويؤكدون لهم أنه بمقدورهم إخضاع الآلهة عن طريق الصلوات والقرابين والرقى من السحر. وهكذا، يبذلون أقصى جهدهم في قلب وتدمير مصائر الأفراد والدول إرضاء للجشع الذي يسكنهم. من ثبتت في حقه هذه الجرائم واقتنع بها، فإن القضاة سيحكمون عليه اعتمادا على القانون بالحبس في السجن الموجود في قلب البلد، ولن يمكنه لقاء أي شخص؛ لمدة محدودة سيتلقى من أيدي العبيد ما يقرره له من طعام حراس القانون؛ وبعد موته سترمى جثته خارج الحدود دون دفن. وكل شخص قد يبادر إلى دفنه ستتابعه العدالة بتهمة الكفر. وإذا ما ترك بعده أطفالا جديرين أن يخدموا الدولة، فإن القضاة الساهرين على العناية باليتامى سيعولونهم أيضا على نحو عنايتهم باليتامى العاديين، وذلك ابتداء من تاريخ إدانة أبيهم». (محاورة **القوانين:** الكتاب العاشر).

هناك منع ممارسة الشخص، داخل بيته، عبادات وطقوسا خاصة، تحت طائلة الغرامات؛ ومنع المجرمين من تقديم قرابين وأضاحٍ للآلهة، تحت طائلة الموت؛ ليس هذا فقط. الشعراء الذين أفسدوا في عمق كبير مفهوم الألوهية، فقد وجب عليهم تمثيل الله كما يجب وكما هو: رحيم وعادل وبسيط. ولم يعد متاحا لفنهم الشعري ولباقي الفنون، من موسيقى ورسم وهندسة ورياضه بدنية، تمجيد أفعال غير الأفعال الفاضلة؛ ولا يمكن استعمال كفاءة الإقناع، تلك القدرة القوية والحية جدا، إلا لتوجيه الناس نحو الفضيلة.

هكذا هو اللاهوت السياسي عند **أفلاطون**، فالسلطات العمومية في جمهوريته تتحمل مسؤولية هداية الأرواح ومن واجبها طرد الضلال والزيف، والارتقاء بالفضيلة والأخلاق. ولإتمام هذه المهمة، فإن للإقناع دورا يلعبه؛ فقضاة مجلس الليل سيحضرون كل مساء لتلقين الملحدين المسجونين في سجن الإصلاح مبادئ الإيمان. لكن للسجن ولعقوبة الإعدام أيضا دورا في ذلك.

بعد استدعائه للمرة الثانية إلى **سرقوسة**، وهذه المرة من قبل **ديونيسيوس الابن**، حاول **أفلاطون**، جاهدا ومن دون جدوى، جعل هذا المستبد الحقير يتحوّل إلى فيلسوف محب للحكمة. ففي **أثينا**، كما في كل المدن الإغريقية الأخرى، لم يكن الوقت مناسبا لتأثير فكره اللاهوتي. كانت الطقوس الوطنية ومعها الدول القادرة على المحافظة عليها تؤول وقتها إلى التفكك، وقد ضربها الانهيار نفسه. لما كانت المدن الإغريقية تشيخ؛ أي إن معظم سكانها صار من الشيوخ، غدت متعبة وطائشة، فصارت تمحو ما بين آلهتها من مميزات بينة جلية وفتحت الأوليمبوس للآلهة الأجنبية، من دون أن تبلغ إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد. هو تسامح أرواح غير مبالية ترحب بالخرافات الغريبة، تلك الأرواح التي ستتذلل بعد وقت قصير لقوة **مقدونيا وروما**.

سيجد **أفلاطون** مجال حياة جديدة عند المفكرين المسيحيين. في عام 529، سيغلق له إمبراطور مسيحي يدعى **جستنيان** أكاديميته؛ لكن القديس أوغسطين قال عنه: «**إنه أقرب إلينا من أي إنسان آخر**». قريب بتوقه إلى حقيقة واحدة وبإيمانه بإله عادل لا يمكن للمذنب أن يفلت من قبضته. قريب بالفكرة التي عرضها في محاوراته بخصوص الصراع الذي لا ينتهي بين الشر والخير. كان أفلاطون يقول، إنه في هذا الصراع يكون الله حليفنا؛ لكنه كان يقول، أيضا، إن الدولة يجب أن تكون حليفة لله.

روما ترحب بكل الآلهة

عندما جنّد أوفيديوس (Ovide) كل الآلهة، على اختلاف مشاربها، للذهاب إلى روما، لم يكن بصدد مجاملة العاصمة: لقد كان يعلم أن روما ترحب بالآلهة جميعها؛ فقد جرى إدماج الآلهة الإغريقية وأصبحت العبادات الشرقية مقبولة.

كان «جنود الضمير»، كما كان **هنري هين** يسمي الرومان وهم أهل منفعة وضمير، يخصون كل إله بعبادة محترمة ومضبوطة، لا تفريط فيها إلى درجة الإلحاد، ولا إفراط إلى درجة الخرافة. كانت الدولة تخص الآلهة بعبادة الجماعة السياسية، مثلما تخصها العائلات بطقوس العبادة العائلية. يقول الكاتب والعالم الروماني **فارون (Varron)** إن الدولة سابقة على الطقوس والعبادات، لأنها هي التي أسستها؛ فلماذا الاهتمام بالصحيح والزائف في المسألة الدينية؟ يكون من الخير أحيانا أن يعتقد الشعب أنها بعض الأمور الزائفة صحيحة، وأن تغيب عنه بعض الحقائق، ثم يضيف: اللاهوت على ثلاثة أصناف: لاهوت الشعراء، ولاهوت الفلاسفة، ولاهوت المدينة. لاهوت المدينة يهم المواطنين خاصة الكهان منهم، و«عليهم العلم به وضبط ممارسته؛ ومجاله هو العبادات العمومية: من طقوس وقرابين ومهمات دينية».[12]

أما بخصوص لاهوت الفلاسفة، فهناك رسالتان لشيشرون تبينانه بما يكفي، رسالة **في طبيعة الآلهة** و**الرسالة في التكهن**: إنه يكمن في مدرسة الريبة التي تروم استبعاد الخوف من غضب وأحقاد الآلهة، من خلال مذهب الشك. سيتم حرق الرسالتين[13] على عهد **دقلديانوس** سنة 302 على أنهما يهدمان العقيدة الوثنية. فقط في هذه اللحظة ستغدو الروح الوثنية متوجسة وسريعة الغضب. أما الجمهورية الرومانية، فلم تكن تعرف الجرائم الدينية ولا المساطر الجنائية المتعلقة بالأمور الدينية.

12 - Varron, *Antiquitatum rerum divinarum libri*

13 - راجع في طبيعة الآلهة، الفصل 13- ويذكر بوييه في تقديمه لرسالة التكهن مسألة المنع.

تبنت الإمبراطورية منذ بدايتها مهمة الحفاظ على روما، مع تعزيزها بكل القوى الرومانية التقليدية. ففي أي تاريخ سنت الإعدام عقوبة للإلحاد؟

على كل حال، فهذه النزوع الوطنية الدينية وافقت النوايا الخفية عند الإمبراطور أغسطس، حيث إن كاسيوس[14] الذي خبر عن قرب من السياسة الإمبراطورية يسجل الأمر في خطاب متخيل على لسان غايوس كيلنيوس مايكيناس[15]:

عليك أن تبجل الله في كل شيء، وفي كل مكان، وفق عادات الوطن، اضغط على غيرك لتعظيمه. اجعل كرهك وعقابك لأتباع الآلهة الأجنبية، ليس ذلك احتراما للإلهة فقط، بل لأن من يدخلون آلهة جديدة ينشرون ذوق العادات الغريبة؛ وهو ما يؤدي إلى المؤامرات والعصابات، وهي أمور لا تناسب نظام الحكم. ولا تسمح لأي شخص بأن يجهر بالإلحاد أو بتعاطي السحر.

شكاوى الوثنيين ضد المسيحيين، أباطرة ومفكرين، هي كالتالي: المسيحيون يحبون تكوين طوائف لأغراضهم الخفية؛ ويشك في تعاطيهم السحر؛ وهم بالخصوص يخالفون النزعة الوطنية الدينية، إنهم «معارضون حقيقيون» كما يقول الإمبراطور **ماركوس أوريليوس**، الرواقي الورع الذي كان يحتقر بالفعل وبالقسوة الديانة الجديدة. يكتب الإمبراطور **مكسيمان ضايا** بأنهم أثاروا حنق وغضب الإلهة على الإمبراطورية؛ ليقوم هذا الإمبراطور المجتهد في استعادة الروح الرومانية في كل صفائها القديم، بإطلاق العنان للاضطهاد في أفظع صوره في بداية القرن الرابع. ويقول في فتواه القانونية ضد أتباع الديانة المانوية: «إنه لا يستقيم أن ينتقد دينٌ جديدٌ دينا قديما. فأن يرتد شخص عما هو في ملكنا وفي عاداتنا مما ضبطه الأقدمون هو جرم عظيم». أما الإمبراطور المتسامح، فقد كان ذلك الشاب المجنون **إيل جبل** (Elagabalus)، فينيقي الهوى، الذي أراد في لحظة من اللحظات أن يبني معبدا يتسع لجميع العبادات، بما فيها الورع المسيحي الجديد.

أما حالة الإمبراطور يوليانوس[16] فمختلفة. لقد كانت أقواله الأولى متسامحة، وترافقها أفعال متصالحة. يقول: **في نظري، يجب تنوير الناس الذين يحيدون عن العقل، لا معاقبتهم. ومن أجل إقناع الناس وتعليمهم،**

14 - (لوسيوس كاسيوس ديو كوكايانوس: كان عضواً في مجلس الشيوخ الروماني، وقنصلاً، وكاتباً ومؤرخاً).

15 - (Gaius Cilnius Maecenas) هو شاعر وسياسي من أصل روماني، أحد أكبر الأصدقاء والمستشارين المقربين للإمبراطور أغسطس قيصر.

16 - يوليانوس (يوليان المرتد - يوليانوس الجاحد)، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية (361–363م) حاول أن يعيد إحياء الوثنية في الإمبراطورية الرومانية في عام 361 لكنه فشل، قبل أن تصبح المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة للإمبراطورية على يد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (378-395).

يجب الرجوع إلى العقل، لا إلى الضرب والسب والتعذيب الجسدي. لا أريد أن اكرر الأمر كثيرا: فعلى المؤمنين الورعين بدين الحق أن لا يضايقوا ولا يهاجموا ولا يسبوا جمهور تلامذة وأتباع المسيح.

يجب اعتماد الرأفة أكثر من البغض تجاه من هم في شقاوة الضلال والزيف في هذه القضية الجدية. إذا كان الدين في الحقيقة هو أفضل الخير؛ فالكفر بالمقابل هو أكبر الشرور.

ألا نشعر في مقولة التسامح والغفران المحقر لهذا الإمبراطور، بحاجته إلى السخرية ممن وضعهم قدرهم في هذه الدنيا تحت رحمته؟

كتب هذا الإمبراطور كتابا ضخما ضد ألوهية المسيح، وفيه يعتبر المسيحية مؤامرة ودجلا ومرضا. ويعدّ المسيحيون جهالا لا ثقافة لهم ولا معرفة، إذ إنهم هجروا آداب أثينا وروما. لماذا قطعوا مع اليهودية التي هي على الأقل عقيدة راسخة؟

سجّل البعض أن هيلينية[17] يوليانوس هي نزعة عقدية طائفية شرقية. وقد عاب عليه بعد وفاته بعض المعجبين تعصبه وعدم التسامح.

ضمن تعبيرات التعصب تجاه المسيحية التي صاغها المفكرون الوثنيون، كان للحيطة والريبة وللحقد الوطني نصيبه: **سيلسوس**[18] في القرن الثاني عبّر عن بغضه **لسر التجسد الإلهي**، الذي يشوش في نظره على نظام الكون. وأكثر من ذلك، فإنه يعيب على المسيحيين لامبالاتهم، ونكران الجميل تجاه النظام السياسي المحافظ على الدولة الإمبراطورية. وفي الباب نفسه، وبشكل معكوس فإن سيماشوس [19] في القرن الرابع عندما طالب الأباطرة المسيحيين بالتسامح مع طقوس العبادة القديمة للآلهة، طالب بذلك باسم الوطنية الرومانية.

لكل شخص طبعه ولكل عاداته الدينية... لا تهم كثيرا تلك العبادات المختلفة. لنكن عادلين فسنرى في تعددها وحدة. الكواكب التي نتأمل هي نفسها، ونعيش تحت السماء نفسها، كما يحيط بنا كون واحد؛ فما أهمية اختلاف مناهجنا في البحث عن الحق؟

17 - الهيلينية، أو الوثنية الجديدة، هو نزع إحياء الدين اليوناني القديم، الممنوع من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس في 392 و393. (المترجم)

18 - سيلسوس فيلسوف يوناني من القرن الثاني وخصم للمسيحية المبكرة (المترجم)

19 - كان سيماشوس أرستقراطيا رومانيا كبيرا في القرن الرابع، وعرف بشكل خاص بكفاحه للدفاع عن الدين الروماني التقليدي ضد المسيحية في عز ازدهار الإمبراطورية الرومانية (المترجم)

لما أعيته انتصارات المسيحيين تشبث الفكر الوثني بتسامح من هذا القبيل، حتى إن **ماكسيم دي مادور**[20] سيبشر بنزعة ربوبية لامبالية بالمظاهر الدينية الشكلية ومتعالية عنها. يقول إن «**اختلاف الآلهة التي نبجلها بألف طريقة تتحد كلها في رب الآلهة والبشر معا**».

لن يكون من المجحف القول إن الفكر الوثني لم يكن متسامحا إلا من باب الغفلة أو الملل. ما إن ارتقى إلى مفهوم الحقيقة الدينية، حتى حرص على فرضها من خلال قوة الدولة ومن أجل مصلحة الدولة وخيرها؛ لكنه يبقى مشروعا ومباح الإحساس بأن ثمة اختلافا عميقا بين تعصب يوليان وتعصب أفلاطون كما يبرزه في محاورة القوانين: فليس ثمة من نقطة التقاء بين الشر والحقد الدفين عند الأول، وبين السكينة المليئة بالمحبة المسيحية عند تلميذ سقراط المبشر بروح المسيحية قبل ظهورها.

II- التسامح في زمن البدع والانشقاقات المسيحية الأولى

نعرف كيف رسم بعض أصحاب العقول البسيطة خطوط مشاعر المسيحيين حول التسامح داخل كنيسة القرون الأولى، إذ اعتقدوا «أن المسيحيين قد اعتبروا أنفسهم، في فترة الاضطهاد، رائدين في مسألة حرية الاعتقاد؛ فلقنوا الناس مذهب التعصب حينما انتصروا».

إن أفكار ومشاعر المسيحيين الأولين حول التسامح كانت أقل بساطة. خلال فترات الاضطهاد كما بعدها، حاولوا أن لا ينظروا إلى الوثنيين على أنهم أعداء: أي ككائنات انفصلت عن المسيح إلى الأبد. أما الصيغ التي طالبوا من خلالها بحرية اعتقادهم، فقد استبعدت دائما استعمال وسائل الإكراه لدعوة من لا يؤمن إلى الإيمان بالمسيح. كان موقفهم تجاه المبتدعين المهرطقين مختلفا بعض الشيء؛ وسأحاول تحديد ذلك الموقف كما كان، وسأقوم بشرحه وتثبيت الدوافع والأسباب التي كانت وراء توجيه عمل الإمبراطورية التي أصبحت مسيحية.

بادئ ذي بدء، فإن مفهوم الإخاء الديني بين الشعوب، والقرابة المحجبة، ولكن الواقعية والجوهرية، بين مختلف الديانات لا يظهر للوهلة الأولى أبدا في الكتاب الأول للمسيحيين؛ أي العهد القديم، بينما كانت الأمم الأجنبية تعبد الأصنام، فقد تميزت مملكة إسرائيل القديمة بالمحافظة على التقليد القديم وعلى عبادة الإله الأحد. إن شعب العماليق أو الفلستيون هم أعداء الله، ومملكة إسرائيل عاملتهم على هذا الأساس؛ لكنهم ميتون على أية حال كما قال القديس لوقا: «جَالِسونَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ»؛ لكنه حين اختار الرب ابراهيم، قال له: «وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ»، وعلى لسان إشعياء، أن الله لا يهب اليهود دورا

20 - مكسيم دي مادور، بلاغي النحوي من أصل بربري من نهاية القرن الرابع. كان صديق القديس أوغسطين. (المترجم)

آخر غير أن يكون نورا للأمم. فيقول إن المسيح سيهدي الشعوب الأخرى إلى دين الحق. لكن يمكن لليهود تهيئ هذه الهداية دون انتظار المسيح.. وهكذا، أدخل النبي يونس أهل نينوة في الإيمان بالله الحق. ألا يعلن جمال الخلق، في النهاية، لكل للناس مجد الله وعظمته؟

لم يذكر في الإنجيل أن المحبة المسيحية يجب أن يتوقف عند الجار يهودي. فعيسى يعتبر أن وثنيي **صور** و**صيدا** أقرب إلى حقيقة الرسالة من يهود **كورزين** و**بيت صيدا**[21]. وكما أعلن عن ذلك رسميا، **فإنه «لم يجد في مملكة إسرائيل أحدا»** له إيمان حي وكامل مثل الإيمان الذي وجده عند الضابط الروماني.

هل يعني هذا أنه يجب دعوة **الأغيار**[22] فقط إلى المسيحية؟ يوضح القديس بطرس في **سفر أعمال الرسل**: «**بِالْحَقِّ أَنَا أَجِدُ أَنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ الْوُجُوهَ بلْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، الَّذِي يَتَّقِيهِ وَيَصْنَعُ الْبِرَّ مَقْبُولٌ عِنْدَهُ**»، والقديس بولس يتحدث بوضوح ويقول إن الله: «**الَّذِي فِي الأَجْيَالِ الْمَاضِيَةِ تَرَكَ جَمِيعَ الأُمَمِ يَسْلُكُونَ فِي طُرُقِهِمْ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ نَفْسَهُ بِلاَ شَاهِدٍ**»... فإن الرب أراد أن يجعل «**كل الناس يبحثون عنه**». ويزيد قولا في **رسالة الرومان** بأن الوثنيين بالفعل قد عرفوا الرب وما زالوا يعرفونه؛ إلا أنه «**بالرغم من معرفتهم بالله فإنهم لم يشكروه ولم يمجدوه**». وأكثر من ذلك، فهم يعرفون حكم الرب الذي يستنكر رذائلهم. فضمائرهم ليست خرساء ولا أبصارهم عمياء عن رؤية المعجزات الإلهية في الخلق. «إن هؤلاء **الأغيار** الذين لا شريعة، يعملون بشكل طبيعي ما تأمر به الشريعة»: إن لهم قاعدة أخلاقية. البعض منهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم: فالصلاة من أجلهم والصلاة من أجل الناس، كما يقول القديس بولس مخاطبا **تيموثاوس** «**يعتبر أمرا طيب ورائع في نظر الرب المخلص**». لو أن الرب «قد ترك كل الناس تهيم في الكفر» أليس بهدف «إنزال الرحمة عليهم جميعا»[23]؟

إن شراح **رسالة أهل روما** لم يتحفظوا على ترك هذه النقطة في الظل. حقيقة الإله الواحد الخالق لا شك في أنها مكتوبة «في قلوب **الأغيار**» يقول الشارح **أوريجان**. الوثنيون يعرفون الإله الحقيقي، يلح مينوثيوس فيليكس: «الذين يجعلون من **يوبيتر** سيد الكون يخطئون في الاسم لكن يعترفون بوجود قوة مطلقة

21 - كورزين وبيت صيداء وكفرناحوم هي المدن التي شهدت، حسب إنجيل لوقا، معجزات السيد المسيح العظيمة وسمعت مواعظه الجليلة (المترجم).

22 - غير اليهود، أو ومقابل الكلمة العبرية "جوييم"(المترجم)

23 - لفهم فكر القديس بولس سيكون من المفيد إعادة قراءة ملخص دوشيس في **التاريخ القديم للكنيسة** (ج 1 ص73) «الكنيسة هي تجمع كائنات يطبق عليها فعل الخلاص. تطبيق من الرب لكل الناس من كل الأصول وهي هبة مجانية. فالكنيسة التي وقع عليها الاختيار تستمد كل شيء من عيسى المسيح: هو علة وجودها، والمبدأ الحيوي فيها وقائدها. نزل من السماء ليشكلها ويجعل من الصليب رمزا للخلاص؛ كما يجعل هذا الصليب من عمله ينتشر ويتقوى عند صعوده إلى السماء. وهكذا، ففي الكنيسة كل الحياة المذهبية تنبع من عيسى المسيح: كل تقدم علمي يرتبط به غايته تأسيس معرفة كاملة به وبهذا التجسيد الإلهي والفلسفة الإلهية التي تسكنه. يزيد دوشيس قولا: «إن الخطر الذي يهدد هذا النمو المذهبي هي التعاليم الفارغة لأشباه المحدثين، المتغيرة مثل الريح وحظوظ اللعب، فبنهجها للحيلة البشرية فإنها بالحيلة تودي بالعقول التي ما زالت لم ترسُ بعد على الإيمان القوي إلى الوقوع في الخطأ». انظر أيضا في الكتاب (جزء 1 ص98) الفصل الثامن: المسيحية والشرعية

واحدة». يؤلف **تيرتيليان** كتابا «**شهادة الروح**»، وهو شهادة «**الروح المسيحية بالفطرة**». تؤمن الروح عفويا وفطريا بإله واحد كامل وعادل. وينتج عن ذلك بالنسبة **إلى تيرتليان** أن الوثنيين الماضين في التشبث بوثنيتهم هم مذنبون؛ كما ينتج عنه أيضا إذا ما تأملنا ملياً روح ديانتهم، أنه من المفروض أن يعتنقوا المسيحية بسهولة عند تبشيرهم.

الوثنيون من الجهلة والأميين معذورون؛ والمتعبدون الورعون في أصنامهم فبئس مصيرهم؛ وأما الوثنيون الفاضلون فسيجزون أحسن الجزاء. لكن ماذا عن وثني ما قبل الإنجيل؟ هنا تبدو جليا نظرية القديس جوستين. فهذا العقل المنفتح الذي ينحو إلى التوافق والتصالح أكثر من ميله إلى الشدة، والتلميذ الوفي والمخلص للفلسفة الإغريقية، يرى على غراره أساتذته، أن الله هو الكائن السيد الذي لا يتغير ولا يتأثر بأي شيء، وهو لا يشبه الإله «**ياهوا**»[24] المتجلي دائما في الكتابة المقدسة. هذا اكتشافه، فيقول: **تجسدت كلمة الله في صفة رجل لتعطينا الحقيقة أكمل وأسطع.** لكنه قبل نزوله وتجليه بين الناس، وهبّ بعض أجزاء هذه الحقيقة الكاملة إلى الأنبياء اليهود والفلاسفة «لأن كل واحد منهم يتفرع من العقل الإلهي الذي توجد براعم منه لصيقة بالعنصر البشري». فهل للمفكرين المسيحيين حق اعتماد أحسن المذاهب الفلسفية؟ ألا يمكنهم أيضا اعتبار الفلاسفة مسيحيين قبل ظهور المسيحية؟ ألم يكن سقراط مضطهدا كما اضطهد المسيحيون الشهداء في سبيل الله؟ لقد حرضت الشياطين دائما الأشرار ضد أهل الحق؛ وأهل الحق جسدوا دائما كلمة الله، بدرجات متفاوتة:

المسيح هو مولود الرب الأول، وكلمته التي يتشارك فيها كل الناس: هذا ما علمناه وأعلناه. كل عاشوا وفق كلمة الله هم مسيحيون، ولو بدوا ملحدين كما هو الحال مثل سقراط وهرقليطس وأمثالهم عند الإغريق؛ أو عند البابليين أمثال أبراهيم، **شدرخ وميشح وعبدنغو**[25] وغيرهم ممن سيطول ذكر أسمائهم وأفعالهم. وكذلك الذين عاشوا بعكس كلمة الله كانوا أشرارا وفاسدين، وأعداء للمسيح وقاتلي تلاميذ كلمة الله؛ أما الذين عاشوا وفق كلمة الله هم مسيحيون شجعان ولا يخافون[26].

في موضع آخر، في **حوار مع تريفون اليهودي**، يلح القديس جوستين على الأمر قائلاً: كل الذين عملوا ما يعتبر في كل وقت وكل مكان وفي جوهره خيرا «هم يلقون رضى عند الرب»، وسيخلصهم المسيح عند البعث.

---

24 - Jéhovah

25 - شدرخ وميشح وعبدنغو هي ثلاث شخصيات يهودية ذكرت في الكتاب المقدس في سفر دانيال

26 - SAINT Justin , *Apologie*

هذه النظرية العبقرية والجميلة ازدادت ترجيحا من خلال نظرية الاقتباس أو «السرقة» كما كانت توصف، التي اقترفها الفلاسفة الوثنيون في الكتب اليهودية المقدسة. يهود اليونان في الإسكندرية: أريسطوبيل وفيلون قد بنوا هذه النظرية ونشروها. بالنسبة إليهم كان أفلاطون منتحلا للشريعة اليهودية؛ أما سقراط وأورفيوس وهوميروس وهيرقليتس وهيزيود وزينون، فقد تبنوا سرا مدرسة موسى تماما مثل فيتاغورس «أشهر الفلاسفة بحكمته وتدينه» كما يقول **جوزيف**. ففي حماسهم الصادق لجعل نظريتهم تحظى بالقبول، فكر يهود إسكندرية في اللجوء إلى الحيلة، حتى يتم العثور على فكر التوراة بسهولة في كتب الوثنيين، ألم يكن من الأجدر ابتداع نصوص ظاهرة مقررة تتخللها مقاطع من الكتب المقدسة، ثم تقديمها على أنها من أعمال أشهر الوثنيين؟ وهكذا، جرى نظم أبيات لأرفيوس وبعض الشعراء الإغريق الآخرين؛ ورسالة **لأريستيوس**، وبعض مقاطع **هرمس الهرامسة**؛ **نبوءات** هيستاسب، ملك الميديون؛ جزء من **كتب الوحي والنبوءات**[27]... إننا نشك في أن نكون لا نزال تحت رحمة نزوة يهودي مزور، لكنه بدون شك صريح وصادق في عقله؟

عند نهاية القرن الثاني في الإسكندرية طور الكاهن كليمندس، والذي سيسمى القديس كليمندس الإسكندري، سيتوسع في ما يقول القديس بطرس في **سفر أعمال الرسل** بخصوص أن «**اللهَ لاَ يَقْبَلُ الْوُجُوهَ بلْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، الَّذِي يَتَّقِيهِ وَيَصْنَعُ الْبِرَّ مَقْبُولٌ عِنْدَهُ**». ويقول في مؤلفه **ستروماتوس** أن الفلسفة بالنسبة إلى الإغريقيين كانت مثل الشريعة بالنسبة إلى اليهود: وهو الوسيلة التي استعملها الرب ليقودهم نحو الحق، وهو أنجيلهم يرجعون إليه. إنه ليس وحيا بطبيعة الحال، بل مسلك غير مباشر خلقه الرب خالق كل خير. إن الأغيار قد تاهوا وانصرفوا إلى عبادة النجوم؛ لكن الرب قد سمح لهم بهذا الانحراف حتى يوقف اتجاههم إلى الإلحاد. على كل حال، فعبادة النجوم تضطر صاحبها إلى «رفع رأسه» باتجاه الله؛ إضافة إلى ذلك فالمثقفون عموما هم موحدون. منذ البداية كان كلمة الله رحيمة بالناس؛ فنورتهم فلم بقي أحد بلا شريعة. أوريجينوس الذي استعجلته اعتراضات سيلسيوس، يؤكد الحلول نفسها: فالله دائما وفي كل مكان ينقذ الناس من براثن الخطيئة والضلال؛ لكنه يفعل ذلك باختلاف كبير حسب «ترتيبات خفية ومبهمة لعنايته سبحانه».

دافع كليمنديس الإسكندري في كتابه **ستروماتوس** عن نظرية تسعى هي أيضا إلى التقريب بين الوثنيين والمسيحيين. تلك النظرية نابعة من رسالة القديس بطرس، الذي يقول: «المسيح، الذي عذب حتى الموت بحسب منطق الجسد لكنه غدا حيا بمنطق الروح، قد ذهب في هذه الروح لعظة الأرواح الأسيرة، التي كانت متمردة في الماضي».

27 - Sibyllin

استنتج **كليمنديس** أن المسيح قد جعل عالم الأرواح إنجيليا. وهكذا، بتلقيهم تعاليم المسيحية بعد موتهم، فإن اليهود والوثنيين السابقين للإنجيل قد جرى خلاصهم: ومن كان منهم عادلا في الأرض اعتنق المسيحية بسهولة في السماء!

يا له من إبداع ساذج في هذا الإلحاح على إيجاد تقاربات دينية بين الوثنيين والمسيحيين!

إن القاسم المشترك بين الوثنيين والمسيحيين هو ذلك العمق الديني بكل مكوناته؛ لأن القديس **سان جيروم**، مثلا، يؤكد أن معرفة الرب شيء فطري عند الجميع. فهل تم خلاص الوثنيين بفعل فضيلتهم؟ يتساءل القديس أوغستين[28]، فيجيب: «**خلّص المسيح الوثنيين اعتبارا لفضيلتهم**».

هكذا، كان المفكرون المسيحيون الأوائل يصفحون عن الوثنية الماضية السابقة للمسيحية؛ لكن كلما كانت حقيقة المسيحية تنتشر في العالم الروماني، كلما أصبح جهل الوثنيين في نظرهم بعيدا عن الحقيقة ولا يغتفر.

وعلى هذا الأساس، لا يجب أن نندهش أو ندعو إلى الثأر إذا عرفنا أنه في منتصف القرن الرابع ضغط **فيرموس ماترنوس**، بالرغم من أنه حديث العهد بالإيمان، على الأباطرة «**لإلغاء قذارات الوثنيين**[29]»، ويعني شعائرهم الفاحشة وضلالهم في الوقت نفسه. فهل انتشى هذا المتحمس بانتصار المسيحية؟ قد يكون الأمر كذلك؛ لكن انتشار المسيحية وتعميمها جعل عبادة الأوثان في نظره أكثر عبثية وإجراما.

إن المدافعين الأوائل عن الدين قد احتجوا في القرون الماضية على الظلم والاضطهاد الذي مارسته الوثنية، لكن لم يتخلوا أبدا عن مهمة الديانة المسيحية ألا وهي غزو النفوس. يطلبون الحرية من أجل الحقيقة القادرة وحدها، كما يقولون، على التأثير في تلك النفوس. هكذا هو، إذن، التسامح عندهم على ما يبدو: يقولون إنه لا يفرض الدين بالإكراه، لكن حقيقة المسيحية هي التي تفرض نفسها.

عبادة العجل الذهبي قد كلفت حياة ثلاثة آلاف رجل: أنبياء منتحلون، وطاعنون في الرب، ومنجمون، ومارقون نفذ فيهم الإعدام. يوصي **سفر التثنية** في **العهد القديم**: «**إذا ما وصل إلى علمكم أن رجلا أو امرأة قد عبدت آلهة أجنبية فقوموا بجرهم إلى أبواب مدينتكم وارجموهم بالحجارة**». من لم يحترم يوم السبت أو تعاطى للتنجيم، يُعاقب بالقتل؛ إن الرب قد رفض شؤول؛ لأنه أشعل المحرقة دون انتظار صموئيل. كل هذه العقوبات الإنجيلية سيتم الاستشهاد بها لاحقا كتأصيل لما يقرر ويسن من قوانين وعقوبات.

28 - L. Capéran, *le Problème du salut des infidèles.*

29 - Julius Firmicus Maternus: De Errore Profanarum Religionum,

لكن عنف النعوت التي وصف بها الحواريون المبتدعين يدل على الإحباط المرير والحرقة المفرطة التي تسبب لهم فيها المنشقون. حواريون منتحلون، أسياد كذابون، فاسقون، أصحاب نفوس جشعة، تلك هي الصفات التي وسمهم بها القديس بطرس. غاوون ومسيحيون دجالون، يقول القديس جان.

بالطبع، هناك عقوبات ستلي ذلك، كما هو الحال في كل مجتمع عائلي أو وطني يطمح إلى البقاء.

سواء معتدية كانت أو متسامحة، إن دولة الإمبراطورية لم تكن قد تدخلت بعد في الشؤون الداخلية للكنيسة. لم يكن **لديوكليتيان** يلاحق الديانة المانوية إلا باعتبارها تشكل خطرا عموميا. في سنة 313، قسطنطين وليسينيوس، رغبة منهما في جلب الرعاية الإلهية لهما ولروما، نشرا مرسوما للتسامح، هو **مرسوم ميلانو:**

«منذ زمان واعتبارا بأن حرية المعتقد لا يجب أن ترفض، وأنه يجب منح حق التوجه الإرادي فيما يخص الشؤون الإلهية للجميع، حسب رأي وإرادة كل واحد، فإننا أمرنا أن يكون بمستطاع كل واحد، بمن فيهم المسيحيون، أن يبقي على مبادئه الدينية.... وارتأينا أن نعطي للمعتقد الديني الأولوية القصوى؛ وذلك بمنح المسيحيين وغيرهم حرية اتباع الديانة التي يختارونها... وهكذا، قررنا تحت راية العقل السليم والمنهجي أن لا نقيد حرية أحد. وبهذا، نرفع عن المسيحيين تلكم القيود المشينة، والتي لا توافق نزوعنا إلى الرحمة...

نريد أن تكون للآخرين أيضا الحرية الكاملة نفسها في ممارسة معتقداتهم وشعائرهم، كما يقتضي ذلك مبدأ السلام في زمننا هذا؛ وحتى يتمتع الجميع بحرية عبادة ما يحلو له».

إذن، هذه هي الإجراءات الأساسية، وهذا هو روح مرسوم ميلانو: كل اضطهاد ديني ملغى؛ كل القوى الدينية كيف ما كانت ستمارس لصالح الأباطرة؛ الاهتمام بالدين هو في صلب أولويات الإمبراطورية.

وسيستمر هذا النهج المنفتح والكريم تجاه الوثنيين قرنا كاملا تقريبا. بالتأكيد، كان قسطنطين يسعى إلى الوحدة الدينية للإمبراطورية، ولا يرى ذلك ممكنا إلا بالمسيحية. أما ابنه، ففي سنة 341 في قرار الرد على راهب إيطاليا، أمر بإلغاء الوثنية «الشعوذة» وإلغاء جنون القرابين؛ القرابين؛ وحدها هي الملغاة. أما المواكب والأكل والطقوس الخفية، فقد بقيت..... مع ذلك ففي السنوات الأخيرة للقرن الرابع تحولت المعابد إلى قاعات للاجتماعات. ومنع تيودوز كل شعيرة وثنية. لكن ماذا كان بقي حقيقة من شعائر الوثنيين في سنة 388؟

لم يكن الأباطرة غير مبالين منذ قسطنطين إزاء الصراعات الدينية والبدع والمخاطر التي تحدق بمذهب المسيح، منعوا أحيانا كتب الهرطقة أو الكتب المعادية للمسيحية، والتي قد «**تثير غضب الرب وتؤذي الأنفس**»، لكنهم بالخصوص لعبوا دور الحكام المسلحين بالعقيدة الصحيحة.

ليس موضوعنا هنا تعدد كل القرارات التي تصب في التعصب غير المتسامح عند الإمبراطورية. سنجد ذلك بالتفصيل في قانون **جوستين وتيودوز**. الإمبراطور يتكفل بالنفوس، إذ عليه أن «**يولي اهتماما لشيء أساسي أكثر من غيره ألا وهو الخلاص الأبدي لرعاياه**». فيما يخص المانويين والوثنيين، فقد منع عليهم حق التملك معتبرا «**أنه من العدل حرمان كل من لا يعبد الرب من نعم الأرض**»؛ ومنع على الوثنيين تقلد أي منصب مسؤولية «على اعتبار أنه يكفيهم حق الحياة». بتقلده دور المحقق للعدالة اتجاه أو ضد الوثنية، ألم يعتبر جوستينيان نفسه فقط بمثابة «**الذراع الدنيوية» للكنيسة؟** أو بمثابة المساعد العلماني الخارجي لرسالة الكنيسة؟ سبق أن ميز بين «الكهنوت والإمبراطورية كالتالي: «**الأول يهتم بالأمور الإلهية؛ والثانية بالشؤون الإنسانية**». لكنه سرعان ما سوف يقبل رأي اللاهوتيين بالقسطنطينية، الذين أكدوا له أن الإمبراطور قد اختاره الرب في الأزل لحكم العالم بمبدأ السلطتين الروحية والدنيوية.

هل كان الأباطرة المسيحيون متسامحين مع اليهود؟ اقتصر قسطنطين على منعهم من ممارسة التبشير. أما ابنه، فقد أثقل كاهلهم بالديون، بينما **تيودوز** حماهم، لكن الرأي العام المسيحي كان يعاديهم.

ماذا كانت ردة فعل المفكرين من نخبة العقيدة الرسمية، أمام البدع وصرامة عدالة الإمبراطورية؟ يعلن القديس **هيلير البواتيي** بينما كان هو نفسه مضطهدا من لدن **كونسطان**: «**علمنا الرب أن نعرفه أكثر دون أن يجبرنا على ذلك... ولم يرض الإيمان به تحت الإكراه**».[30]

يقول **سالفيان** في القرن الخامس عن الآريين:

«**إنهم مبتدعون لكن يجهلون ذلك.. الحقيقة بجانبنا لكنهم يعتقدون أنها بجانبهم. في الوقت الذي هم عن الإيمان الحقيقي بعيدون، إلا أنهم يتبعون إيمانهم بقلب خالص صادق. وحده الرب العادل يعلم عقاب ضلالهم يوم الحساب**».[31]

نسوق أيضا مقولة التسامح عند القديس **غريغوار دي نازيانز**:

30 - Hilarh, *Epistola Constantium lib* I

31 - Salviani, *De Gubernatione Dei lib* V

«أن تقنع الناس خير من أن تكرههم»

لكن يجب القول إن نيات التسامح تجاه المبتدع نادرة. يحكي القديس **غريغوار**، في رسالة إلى أوليمبيوس، مدى الإحباط الذي تسبب له فيه اتباع أبولينير، حيث: **«كنت أعرف في العمق خطأهم. جرأتهم لا تحتمل؛ لكني كنت أعتقد بجدوى الغفران لتهذيبهم وطمأنتهم: كان ذلك وهم ! زادت الرأفة من صلابتهم: إن الرحمة والطيبة لا تقوّمان النفوس الضالة».**

أما القديس **أوغسطين**، فيحتل مكانة مختلفة في تاريخ فكرة التّسامح. بروحه الطاهرة التي تسحر كل شيء تقترب منه، عاش بين أتباع الطائفة الدوناتية أحداثا مؤلمة خلال حياته الكهنوتية... يكتب مخاطبا ماكسمين، راهب من أتباع دونات: **«ليس هدفي إجبار الناس، بل التعريف بالحقيقة للذين يبحثون عنها... ليكن العقل هو المرشد والكتابة المقدسة هي المرجع الوحيد للتأصيل»...**

لكن مع ذلك سيطر عليه الإحباط والتوجس، يقول مخاطباً خصومه:

«تقولون إنكم معذبون؟ لكن لا يمكن أن نكون كذلك حقاً إلا إذا حصل التعذيب وتحقق الألم كما تنص على ذلك خطبة (عظة الجبل).. من ثمّ، إن هذا الاضطهاد يقتصر على الغرامة؛ فالذين أعدموا منكم كانوا قطاع طرق. زد على ذلك، ألستم أنتم من طلبتم العون من الأباطرة؟ وإذا كان لزاما على الدولة أن تعاقب مرتكبي الشر، فلماذا لا تعاقب الانشقاق والبدعة؟ أنتم أنفسكم، عندما يتعلق الأمر بمحاربة الوثنية، ألم تعترفوا للدولة بحقها في التصرف مع «ديانة خاطئة وفاسقة»؟ ونحن لا نطلب من الدولة أن تطبق عليكم كل العقوبات التي تستحقونها: لا نقبل في حقكم إلا صرامة تكون على قياس لطف وإحسان المسيحية».

هناك بعض التهديد والوعيد فيما كتبه ضد **بارمينيوس**؛ لكن الغفران يظهر من جديد في رسائله إلى **كريسبينوس**:

«ليحفظني الرب من استجدائه لطلب عدالة الإمبراطور ضدكم.. لا نريد أن يكون البشر هم من يثير خوفكم. ليكن بالأحرى المسيح هو من يلهمكم الخشية».

هاجم بيتليانوس، وهو دوناتي المذهب، القديس أوغسطين في رسائل فيها سب. فجاء جواب الأخير في ثلاثة كتب من النقاش. يقول إن أملنا في الرب يختلف تماما عن ما نتوخاه من الأمراء! لكن الأمراء في النهاية يعرفون واجبهم كأمراء: عندما يعاقبونكم، فإنهم يمنعون تفكك الدولة. أنتم لا تتوقفون عن الإكراه والتعنيف. لكن بيتليانوس يرد:

«قال سيدنا المسيح: «لا أحد يستطيع التقرب مني لو لم يقربه مني الرب الذي أرسلني «لماذا إذن لا تسمحوا لكل واحد أن يتبع إرادته الحرة إذا كان الرب هو الذي وهبها للناس؟ ألم يقل بالفعل: وضعت أمامكم الخير والشر، ووضعت أمامكم الماء والنار: اختاروا ما يحلو لكم؟

فجاء رد أغوسطين:

«إذا سألتكم كيف يقرب الرب الناس الذين ترك لهم حرية الإرادة، نحو ابنه يسوع، ربما ستجدون الإجابة عن سؤالي صعبة. بالفعل، كيف سيقربنا إذا كان يتركنا نتصرف كما نريد؟ ومع ذلك فكل من إرادة الله وإرادة الإنسان قائمتان معا؛ لكن قليل هم القادرون على النفاذ لفهم هذا العمق بنور عقلهم.

في حقيقة الأمر، القانون لا يلغي الحرية أكثر مما تلغيها رحمة الرب. القانون لا يعنف الفكر؛ بل يدخلها فقط في استبصار الخلاص، وفي استقراء جديد، وفي اختيار أكثر تنويرا بالتالي أكثر حرية بمعنى من المعاني. ويضيف القديس **أغوسطين**: **نعتقد جازمين أنه «لا يجب إجبار أحد على اعتناق الإيمان وهو كاره».**

بعد ذلك، جاءت محاولات التفاوض، ومقترحات مصالحة. فدعا تجمع كاثوليكي في قرطاج الإكليروس الدوناتيين إلى عقد ندوة. عمد الدوناتيون إلى الرد على ثلاثة من الرهبان الكاثوليك بهجوم مسلح، فأحدثوا رعبا بين المؤمنين، بإشعال النيران والضرب ورمي الجير الممزوج بالخل. استنكرت الأغلبية في المجمع الديني الحدث، وطالبت بتفعيل القوانين. صبرا جميلا! صرخ أغوسطينو: **فلنعاقب أتباع الطائفة فقط على ما اقترفوه من هجوم؛ سيفهمون أننا نتشبث بحق الدفاع عن أنفسنا، لا بإجبار قلوبهم على الإيمان.**

لم ينتظر الإمبراطور هونوريوس قرارات المجمع الديني حتى يتخذ قراراته القاسية في حق المبتدعين. كتب أغوسطينو إلى محافظ نوميديا:

«فلنتبنى الخشية والخوف كشفاء، بدلا عن العقوبات كأداة للقمع»

إن الدولة المسيحية لا تقوم إلا بواجبها، عندما تحارب الشر «**ليس فقط في ما يخص المجتمع الإنساني؛ لكن أيضا فيما يخص الدين الإلهي**» تقولون إننا نسلب منكم حريتكم؟ لكن هل على الدولة أن تهب حرية القتل والسرقة وارتكاب كل أنواع الموبقات والجرائم؟....

لكن ابتداء من تلك اللحظة، لم يتغير موقف **أغوسطين**. طلب من سلطة الإمبراطورية أن تؤكد بالأفعال إرادتها في قمع البدع؛ لكنه رفض رفضا قاطعا الإعدام في حق المبتدعين....

«إن الكنيسة تضطهد بدافع المحبة، أما الكفرة فيفعلون ذلك بدافع القسوة. الكنيسة تضطهد لتحمي من الخطيئة؛ أما الكفار، فيفعلون للوقوع فيها. تختار الكنيسة اضطهاد الأعداء وتلاحقهم حتى تخمد غرورهم، لتضيء لهم الطريق بنور الخير والحق».

وتبنى **أوغسطين** الموقف نفسه اتجاه المبتدعين واليهود؛ فيستنتج أن لا يجب إلغاء الخشية لأنها حل ودواء؛ لكن، وكما يعلن بنفسه عن ذلك، فإنه يعمل أولا على كسر الأصنام في قلب المبتدعين. وبالرغم من أنه رفض زيف وهفوات الأدب الوثني؛ فإنه لم يحارب، بالمقابل، دراسة هذا الأدب بقدر ما حث على خلق التوازن مع الآداب الرومانية الإغريقية بدراسة الأدب الديني والنصوص المقدسة.

وأما فيما يخص اليهود، فإنه يعرف مدى كرههم للكنيسة؛ لكنه يشفق على هذا الشعب المحروم من أرضه، ويعظم فيه أنه كان شاهدا على المسيحية.

الإحسان ثم الإحسان إلى الأرواح بزرع فضل الرب فيها، ثم الإحسان من أجل الرب باستجماع كل القوى البشرية حوله: هذا المذهب وهذا المنحى نجدهما في قلب المبادئ السياسية لأوغسطين كما عرضها في **حاضرة الرب**. ويقول إن القاعدة الأولى للدولة هي العدالة؛ أي إن الدولة لا يمكنها أن تستغني عن الله، وأن عليها أن تضمن حرية الكنيسة، وأن تساعد التبشير، وتقبل برفعته...

إن المجهود الفكري المسيحي الأول في ما يخص مسألة التسامح سيستمر أو سينهض من جديد لاحقا. من دون المحبة المسيحية ومن دون ذلك الاحترام تجاه حكماء الوثنية من قبل الكنيسة المسيحية، هل كان سيطفو إلى الوجود ذلك الحماس للماضي الإغريقي اليوناني، في النزعة الإنسية وعصر النهضة؟ فهل ستحيا من خلال بوسييه Bossuet، كاتبنا بوسيي، روح القديس أوغسطين بكل وفائها البليغ، وشكوكها المنطقية، التي جاء يحاربها العقل؟

هذا الموقف المتسامح واللامتسامح للقديس أوغسطين يقبل تأويلات عدة: البعض سيرى فيه تباعدا بين عقله وقلبه، وآخرون غير ذلك؛ لكن عندما حاز القديس أوغسطين على إعجابنا بقوة فكره وعلى احترامنا

بتطلعه الصادق إلى النور الكامل، وعندما نعلم محبته الأخوية للضالين والخطائين، لا يمكننا أن نعتبر من باب الضعف كان انضمامه في النهاية إلى مبدأ العقاب أو الإكراه في حق المبتدع.

III- فكرة التسامح في العصر الوسيط

كيف تحوّل العصر الوسيط، وهو عصر البهجة الفكرية وعهد الازدهار العقلي المشاكس، في النظر المهووس للمؤرخين **ميشليه** (Michelet)[32] **وكينيه** (Quinet)[33] إلى مرحلة خراب وموت؟ وكيف استمرت الفكرة النمطية عن كآبة هذا العصر الوسيط طول هذه المدة؟ تشهد على ذلك اللوحة الجصية التي تؤثث أحد جدران في **السوربون**، والتي تصوّر الطلبة خلال احتفال وهم بسحنات شاحبة وعيون حزينة وخطى متعبة ووجوه منطفئة؛ والأمر، على ما أعتقد، مرتبط بكون هذا العصر لم يعتبر عصر تسامح. فقد رآه المؤرخ **ميشليه** ليلا معتما تلتهب فيه محارق محاكم التفتيش؛ وقد أخذته الشفقة بالضحايا وصار يستنكر الجلادين، ويرتعد لفكرة تخيل نفسه يعيش في ذلك العصر..

لن أعدد ضحايا محاكم التفتيش: لن أبالغ في أعداد الضحايا، ولن أزعم أنها كانت نسبيا ضعيفة في تلك الأيام العصيبة التي كانت في حياة الإنسان لا تكاد تساوي شيئا، لن أبحث عن إبراز المفارقة بين التعذيب الذي كان يأمر به رجال التفتيش والتصفيات التي كلفوا بها الذراع العلمانية-الدنيوية، وبين المبدأ الذي تم الجهر به دوما وأبدا: **الكنيسة تبغض الدم.** لن يكون كلامي هنا تمجيدا سياسيا واجتماعيا لمحاكم التفتيش، ولن يكون تبريرا كتلك التبريرات الجديدة للملاحقات المتشنجة للمحاكم الكنسية ضد دعاة البدعة والهرطقة وزعمائها في ذلك الوقت. لقد كانت عدوى الضلال وقتها خطيرة جدا، خاصة أن التعليم العالي كان حكرا على رجال الدين. أما باقي «القطيع المسيحي»، فلم يكن محصنا إلا قليلا في عقله وذكائه ضد خزي الدعوات والعقائد المزيفة. وسأمتنع عن الإسهاب في الحديث عن اليقين في العصر الوسيط؛ أو عن مسألة توافق النورين، نور العقل الطبيعي ونور الوحي الإلهي، الذي بحث فيها وأعلنها **القديس توما**.

لن نفعل هذا، فغرضنا هو أن نشرح ونفسر الأفكار الأخلاقية في تناسلها. ومهمتنا هنا تكمن في توضيح التأثير الكبير لفكر القديس أوغسطين في العصر الوسيط، وتحديد فكر محاكم التفتيش بدقه، وتسجيل مظاهر فكر التسامح: المظاهر التقليدية منها، والمظاهر الجديدة التي تحركها أفكار جديدة.

---

32 - جول ميشليه Jules Michelet (1798-1874) مؤرخ من أكابر المؤرخين الفرنسيين، ليبرالي التوجه ومعادٍ لرجال الدين الكنسيين. (المترجم)

33 - إدغار كينيت Edgar Quinet (1803-1875)، مؤرخ وشاعر وفيلسوف وسياسي فرنسي، جمهوري ومضاد لرجال الدين الكنسيين. (المترجم)

قد كتب القديس أوغسطين إلى المفكر الشاب **فينسنتيوس** فيكتور:

«كنتُ بداية أعتقد أنه لا يجب إجبار أي أحد بالقوة على الوحدة المسيحية. أثبتت لي التجربة أني كنت خاطئا في هذا الباب؛ فقد جاءت القوانين برعب النجاة من النار. لذلك، نجد اليوم أعدادا كبيرة من الأرواح تصرخ: «الشكر لك، يا رب! لقد كسرت أغلالنا».

الإجبار الذي يساعد الإقناع، أو يحل محل الدعوة بالكلام، هو المبدأ أو المسلك الذي انتهى القديس أوغسطين إلى اعتماده في تعامله مع أصحاب الهرطقة والبدعة. فهو يعلن في كتبه أنه لا يقبل إلا الإجبار الودود، الذي فيه لطف؛ الإجبار الذي يروم وهو قادر أن يحمل شفاءً للروح التي أصابتها عدوى الهرطقة، ولا يعتمد التعذيب أبدا ولا عقوبة الإعدام. لا يتعلق الأمر هنا بالتسامح بما للكلمة من معنى: فالشر لا يستحق أي احترام؛ ولا ينبغي للمسيحي أن يعامل إخوانه إلا بالمحبة؛ لكن هذه المحبة لا يسمعها المتمردون عموما إلا بعد ارتفاع صوت التهديد والوعيد.

كان موقف الكنيسة أو عقيدتها، إلى حدود القرن الثالث عشر، هو مذهب القديس أوغسطين في هذا الباب. يكتب **البابا ليون الأول**:

«يجب على الكنيسة، بحكم طبيعة المحبة واللطف فيها، أن تكتفي بالأحكام الكهنوتية، وأن تتجنب القمع الدموي؛ لكنها تجد في سن الأمراء المسيحيين للمراسيم القاسية والشديدة ما يعينها على غايتها. فخوفا من التعذيب الجسدي، يلجأ أهل البدعة والهرطقة أحيانا إلى الشفاء الروحي»[34].

يعبر **البابا غريغوري الأول** عن خشيته على **«القطيع المسيحي»** من **«المجذومين في أرواحهم»**، ويتمنى أن تقوم الدولة بقمعهم واضطهادهم؛ لأنه يقول إن **«آلام الأجساد ستهب الأرواح صحة وعافية»**؛ لكنه لا يعتقد أن فساد عقيدتهم يؤدي بالضرورة إلى زيغ قلوبهم، ثم يضيف أنه يجب **«معاملتهم بكثير من اللطف»**؛ لأنه بالنهاية **«من الأفضل الصبر وتحمل الشر»**.

34 - في رسالة القديس ليون إلى تيروبيوس.

لا يجب على الدولة المسيحية أن تذهب إلى دفع اليهود والوثنيين إلى اعتناق المسيحية بالقوة؛ هذا ما أكد عليه في القرن السابع أساقفة مجمع طليطلة الديني الرابع، وضمنهم **يزيدور الإشبيلي**[35] الذي يجهر مع ذلك باعترافه بسلطان وحق الأمراء والحكام في أكراه المنشقين.

لم يكن الرأي الذي قدمه العالم واللاهوتي الإنجليزي **القديس توما الكويني** إلى أسقف مدينة **باديربون** رأيا مخالفاً بخصوص تحويل الوثنيين إلى المسيحية وفرضها عليهم:

«الإيمان فعل إرادة، إنكم تدفعون الناس إلى التعميد ولا تجعلونهم يتقدمون خطوة واحدة على طريق الدين». وفي القرن التاسع، أوصى البابا يقولا الأول ملك البلغار أن لا يعتمد مع رعاياه «أي عنف ليدفعهم إلى الإيمان».

جدّد الكاثار (les Cathares)[36] الهرطقة المانوية في بداية القرن الحادي عشر: أنكروا سلطة الكنيسة، واستنكروا الزواج، واحتقروا الصليب، حيث قالوا: **«إن شيطانا يتظاهر فوقه بالموت بدل المسيح».** وبالإضافة إلى ذلك، يتمردون على السلطة المدنية التي سرعان ما تعاقبهم بقمع شديد يكون بالشنق والحرق. وقد تلقى الأسقف **وازون** (Wazon)[37]، أسقف مدينة **لييج**، أخبار هذه العقوبات بحزن كبير، فكتب إلى **روجر** أسقف **شالون**، قائلا:

«إن الرب لا يريد موت العبد المذنب: كفى من المحرقات! لا نقتل بالسيوف من أراد ربنا ومخلصنا أن تركهم يعيشون أحياء لكي ينتزعوا أنفسهم بأنفسهم من أغلال الشيطان.. لقد أمرنا المسيح أن ندع النبتة الخبيثة تنمو إلى جانب البذرة الطيبة مخافة أن نقتلعها معا... فهم كذلك اليوم، نبتة خبيثة يمكن أن تتحول في المستقبل إلى نبتة نافعة طيبة... ألم يكن القديس بولس في بداية حياته يضطهد بشراسة المسيحيين الأوائل؟ أن الأساقفة هم مسحة الرب، لا ليمنحوا الموت بل ليهبوا الحياة...».[38]

وكتب **بيير لو شانتر (Pierre le Chantre)**[39] هو أيضا:

---

35 - يسيدور الإشبيلي Isidoro de Sevilla (560 - 636) مؤرخ ومبشر إسباني. اشتهر بتنظيمه مجمع إشبيلية سنة 618 م، ومجمع طليطلة سنة 633، الذي وضعت فيه المبادئ الأساسية للقانون الدستوري في إسبانيا. وقد جمع القرارات التي صدرت عن المجامع السابقة وسائر القوانين الكنيسة الموضوعة قبل عصره وضمّنها موسوعة كبيرة، اشتملت كذلك على زاد كبير من المعلومات المتعلقة بالكثير من الموضوعات العلمية والدينية والتاريخية. وكان كاتباً غزير الإنتاج وواسع الاطلاع. (المترجم)

36 - حركة دينية مسيحية ذات جذور غنوصية بدأت في منتصف القرن الثاني عشر. اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية أن ذاك طائفة خارجة عن الدين المسيحي. وتسميتها مشتقة من كلمة يونانية وتعني "الأطهار".(المترجم)

37 - وازون (1048/980) عالم لاهوتي شغل مرتبة أسقف لييج من 1042 إلى 1048. (المترجم)

38 - *Gesta episcoporum Leodiensium* (تاريخ أساقفة لييج) LX,LXI

39 - عالم لاهوتي مسيحي ورجل قانون وقاض كنسي من القرن الثاني عشر. (المترجم)

«لا يجب قتل الكاثار، سواء اقتنعوا بالعقيدة الزائفة أو اعترفوا عفويا بأنهم مذنبون، إلا أن تعتقد الكنيسة أنهم يستطيعون مقاومتها بالسلاح».[40]

أما **القديس برنار** الذي بارك نية الشعب المسيحي وورعه، عندما ثار سخطا ضد البدعة إلى درجه قتل المهرطقين، فلم يكن **«يؤيد بتاتا المجازر»**. ويقول إن السبب هو **«أن الإيمان مسألة إقناع واقتناع، لا مسألة إكراه... فلنحاورهم، ولنضعهم في السجن إن اقتضى الحال؛ لكن لا نقتلهم».**[41]

إن **الهرطقة مرض معدّ، والعقوبات الجسدية تدفع إلى البحث عن الشفاء الروحي؛ ومن واجبنا أن نحافظ على مستودع الإيمان محافظة تامة**: تلك هي مصوغات التي بنى عليها البابوات والمجاميع الدينية في القرون الوسطى، عندما كانوا يتداولون في موضوع معاقبته المهرطقين؛ لكن سلطة **القديس أوغسطين** المرجعية في هذا الباب ظلت قوية، إذ كان الاستشهاد بأقواله كبدهيات لا تقبل النقاش، حيث يتم الخلط عشوائيا بين حكمته الداعية إلى اللطف والمعاملة بالحسنى، ونصوصه التي تعبر عن إيمانه بالإكراه والإرغام. من المفيد في هذا الصدد مراجعة **مرسوم جراسيانو**[42] - وهو تجميع لقوانين كنسية قام به الراهب **جراسيانو** في محاورة للتوفيق بين النصوص المتنافرة. وسواء تعلق الأمر بالتسامح أو بالتعصب تجاه المهرطقين، فإن أفكار القديس أوغسطين ظلت هي القاعدة المعتمدة:

يمكن التسامح أحيانا مع الأشرار خدمة للأمن والسلام... يجب أن نمكن أتباع الهرطقة من الخلاص، ولو رغم أنفهم؛ فموسى لما سوط شعبه، لم يكن في الأمر قسوة، بل أكبر محبة.

لكن عبارات القديس أوغسطين المشجعة على استعمال الإكراه هي في حقيقة الأمر أكبر عددا من غيرها في هذا المرسوم:

الكنيسة تكون عادلة عندما تلاحق الأشرار؛

للكنيسة الحق في ملاحقه أهل الهرطقة؛

اقتداء بالمسيح، علينا إجبار الأشرار على الخير.

---

40 - Pierre le Chantre. Verbum abreviatum,LXXVIII

41 - In Cantic, ser. 64-65

42 - مرسومجر اسيانو ينتمي إلي القانون الكنسي. ويتناول التوفيق بين جميع القواعد الكنسية الموجودة منذ القرون السابقة، التي يعارض الكثير منها بعضها لبعض.

نتيجة ذلك، ستتحول الهرطقة الكاثارية خلال القرن الثاني عشر بالنسبة إلى الكنيسة إلى مصيبة وطامة كبرى. الخطر داهم. فكيف يمكن توقيف هذه العصابات المتعصبة من خلال الرأفة والتساهل، بينما هي عصابات أفظع تدميرا من الانقسام الأولي داخل الكنيسة، الذي خلقه المبتدعون المهرطقون في الحركة الدوناتيّة[43]؟

تداول **البابا لوسيوس الثالث**[44] مع الإمبراطور **فريدريك الأول بربروسا** في مدينة فيرونا. فرض فريدريك **الأول بربروسا** الحظر على الهرطقة والمهرطقين، فعرضهم للإدانة بمصادرة الأموال والنفي وعدم الأهلية المدنية. وفي سنة 1184، أصدر البابا مرسوما بابويا ضد الكهنة المبتدعين يجردهم من أي مهام ويأمر بالتحقيق ضد الأبرشيات المشتبه في أمرها ويطلب مساعدة السلطات الدنيوية لقمع الهرطقة: يجب أن يتحمل المهرطقون عقاب فعلهم كما يستحقون؛ لكن العبارة ملتبسة، ولم تشر بعد - كما ستفعل في القرن الثالث عشر- إلى عقوبة الإعدام. إن التجاء الكنيسة إلى الذراع الدنيوية صار وقتها مؤسسة قائمة.

لماذا تجذرت هذه المؤسسة في هذا العمق الكبير؟ هنا أيضا كان فكر القديس أوغسطين قد هيأ التربة الصالحة لها:

ثمة ملاحظة دقيقه أثارها البعض، تفيد بأن جوهر المذهب الأغوسطيني يميل إلى «**امتصاص النظام الطبيعي في النظام ما فوق الطبيعي**». هل يميز القديس أوغسطين، في اقتفاءه أثر الخير الأسمى الذي هو مبلغ جهده، بين المسار اللاهوتي والمسار الفلسفي؟ والحال أن النظام الطبيعي في السياسة هو قانون الدولة؛ والنظام فوق الطبيعي هو قانون الكنيسة. لا شك في أن القديس أوغسطين لم يكن يجهل التمييز بين القوتين، قيصر والله، التي أثبته الإنجيل ورده القديس بولس، وهو يبقى مواطنا مجروحا بحكم الاختراقات الأجنبية ومتأثرا لمسألة الأمجاد الأسطورية للإمبراطورية.

لكن العدالة في نهاية المطاف، تلك العدالة الحقيقية التي يريد إقامتها على أساس الدول والتي وحدها يمكنها تقوية تلك الدول، هي العدالة المسيحية، العدالة المعمدة، العدالة السماوية التي تختلف تمام الاختلاف عما يمكن للوثنيين أن يتصوروه.

43 - حركة دينية مسيحية ظهرت في شمال إفريقيا الرومانيّة، وازدهرت في القرنين الرابع والخامس. كانت تقاوم وتعارض الإمبراطورية والكنيسة المركزية. وعرفت عرفت الكنيسة الإفريقية انقساما بسبب المذهب الدوناتي الذي أعلن عدم الاعتراف بأي كاهن مهما علت مرتبته طالما كان مُستكينًا وراضخًا للسُلطات الإمبراطوريَّة.

44 - البابا لوسيوس الثالث (1097/ 1185) ارتقى إلى البابوية عام 1181، وبدأ محاكم التفتيش رسميًا سنة 1184 لسحق حركة الكاثار الدينية.

«إني أقول لكم إنه إذا لم تنتصر عدالتكم على عدالة الفريسيين والكتبة، لن تدخلوا مملكة السماء» العادل بحسب الإنجيل يختلف عن العادل حسب الشريعة القديمة. المؤمن لا يجد شرعية إلا من خلال إيمانه بالمسيح، ومن خلال تطبيق الفضائل الجديدة التي أمر بها المسيح الذي يساعده على إكمالها. لقد صار العدل وقتها هو أن تكون في حالة ود واتحاد مع الله، وتتمتع بنعمته ورضاه؛ فالتعميد يمنح الشخص حياة جديدة تكون فيها المحبة تجاه الله وتجاه القريب مجرد جانب من جوانب العدالة، والوسيلة الفضلى لتكون عادلا؛ بينما ذنوبنا وخطايانا هي **«أنواع من الظلم»**.

وهذه العدالة المسيحية التي تضمنتها خطبة المسيح، **عظة على الجبل**[45]، لم يفكر قبله أحد في الأمر بتطبيقها على السلطة المدنية؛ لكن **القديس بولس**، وبينما كان يعدد لإخوانه فضائل اتباع الأمراء وطاعتهم ذكر أن التكليف الإلهي قد أوكل إلى الأمير مهمتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي نهاية القرن الرابع، أكد القديس **أوريليوس أمبروزيوس**[46] أن **«الإمبراطور قد صار من الكنيسة ولم يعد فوقها»**؛ ويثبت ذلك سنة 390 عندما طالب الإمبراطور ثيودوسيوس[47] باعتراف شعائري رسمي وبتكفير وتوبة عن خطيئة القتل في مجزرة **سالونيك**[48].

شخص الإمبراطور هو من يذل نفسه هكذا، وليس الإمبراطورية. القديس أوغسطين، عندما درس مفهوم الدولة على ضوء العدالة المسيحية وصل إلى إدانة الدولة الرومانية القديمة واعتبارها مغضوبا عليها.

إذا كان هو بنفسه يسلم بأن إرادة العناية الإلهية كامنة في الدساتير السياسية السابقة على المسيحية، فإن تلامذته خلال القرون الوسطى كانوا أكثر منه تشددا وأقل دقة، واجتهدوا وفق الزخم الذي أطلقه هو في إخضاع الإمبراطورية والممالك الجديدة إلى الكنيسة وإلى المؤسسة البابوية؛ وفي إنعاش تلك الدول بحياة المسيح، وإلزام سلطاتها بجعل رعاياها يأتون الخير، لا في مفهومه العام، بل في شكل الفضائل المسيحية.

شعار الإمبراطورية المسيحية، كما صاغه **البابا غريغوري الأول** في نهاية القرن الرابع الميلادي، هو كالتالي:

---

45 - عظة على الجبل أو عظة الجبل الموعظة على الجبل، وتعرف أيضًا باسم شريعة العهد الجديد، طرح فيها المسيح إحدى وعشرين قضية تنظيمية تشكل لب الإنجيل والعهد الجديد، موضحًا نقاطًا في شريعة موسى، وملقيًا عددًا من الإرشادات التي يلتزم بها المسيحيون. (المترجم)

46 - قديس من مدينة ميلانز، أصبح في القرن الرابع أحد الرموز المؤثرة في قيام الكنيسة. (المترجم)

47 - الإمبراطور ثيوذوسيوس الأول (347 - 395 م) آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة. (المترجم)

48 - كانت مذبحة ارتكبتها القوات القوطية بأوامر من الإمبراطور ثيودوسيوس الأول في 390 ضد سكان تسالونيكا. (المترجم)

«إن السماء قد وهبت السلاطين سلطانهم على الناس، لكي يعينوا من يريد إتيان الخير، ولكي يوسعوا الطريق التي تؤدي إلى السماء، لتكون مملكة الأرض في خدمة مملكة السماوات»[49].

تتويج **بيبان القصير**[50] وتتويج **شارلمان**[51] تستجيبان للقصد نفسه، وتترجمان النغمة الأوغسطينية ذاتها:

بما أن الأساقفة المبجلين الذين يتكلمون جميعهم على لسان واحد منهم قد بينوا، من خلال إجماعهم، أن الله قد اختارني لحمايتكم وتدبير أموركم، فاعلموا أني سأحافظ على تمجيد الله وعبادته، وعلى توقير الكنائس المقدسة؛ كما أنني سأحفظ كل واحد منكم وأقدره وأشرفه على حسب درجته وقدره بكل ما أوتيت من علم ومن قوة، كما أنني سأحترم القوانين الكنسية والمدنية التي ترتبطون بها جميعكم؛ وعلى هذا الشرط ستمنحونني احترامكم وطاعتكم الواجبة في حقي باعتباري ملكا»[52].

أنصتوا يا إخواني الأحباء إلى هذا التنبيه الذي وجهه إليكم سيدنا الإمبراطور شارل. لقد أرسلنا إلى هنا من أجل خلاصكم الأبدي، ونحن هنا لنخبركم وننبهكم إلى أنكم ستعيشون في فضيلة توافق شريعة الله، وفي عدالة توافق شريعة الزمان. نخبركم بأنه يجب عليكم الاعتقاد في إله واحد، الأب والابن والروح القدس، الثالوث الحق، والوحدة الشاملة، خالق كل شيء الذي فيه خلاصنا... ولتؤمنوا بأن هناك كنيسة واحدة هي التي تجمع كل التقاة من الناس على وجه الأرض. أحبوا الله من كل قلبكم، وأحبوا القريب كما تحبون أنفسكم، وأعطوا الصدقات للمساكين وفق إمكاناتكم.. أكرموا العابرين وأبناء السبيل في بيوتكم، وباشروا عيادة المرضى، وارحموا الأسرى.. وردوا دين بعضكم لبعض، كما تحبون أن يغفر الله ذنوبكم.. وافتدوا الأسرى، مدوا أيدي العون إلى المقهورين، وارحموا الأرامل واليتامى.. اهجروا السكر وكثرة الأكل. واعلموا أن الغل والحسد يبعدان المرء عن مملكة الله.. ولتطع النساء أزواجهن، وليمتنع الرجال عن سب وقذف زوجاتهم. فلا شيء يخفى على الله.. والحياة قصيرة، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت.. فلنكن دائما على أهبة الاستعداد»[53].

---

49 - *Registrum epistolarum, LXV*

50 - ملك الفرنجة من عام 752 حتى عام 768. (المترجم)

51 - شارلمان (بالفرنسية: Charlemagne) (742- 814): ملك الفرنجة وحاكم إمبراطوريتهم بين عامي (768- 800) وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي (800- 814).

52 - Arthur Kleinclausz, *Charlemagne*, Hachette, Paris, 1934, p.60

53 - Alfredus Boretius ,*Capitularia regum Francorum*,121

لم تكن الإمبراطورية الكارولنجية جسداً منفصلاً عن جسد الكنيسة: كانت بحق عضوا من الكنيسة؛ صارت مع حكم شارلمان ومن خلال هيبته، تقريبا هي رأسها. وعلى الرغم من تناقضاته وإخفاقاته، فإن هذا المذهب الأوغيسطيني في السياسية سوف يستمر طويلا عند الأباطرة؛ تلك السياسة المتخمة بالمقاصد المسيحية، والمتحولة إلى المهمة الرسولية الكنسية. كان ذلك بقدر أكبر في فكر الملكية الفرنسية، في وعي وضمير ملوك الإسبان وعظمائهم، وفي تقاليد النظام الملكي الإنجليزي: الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الملوك المسيحيون جدا، الملوك الكاثوليكيون، حماة الإيمان، كان لكل منهم أعماله العفوية للدفاع و«لتمجيد المسيحية»، كما يقولون في العصور الوسطى، ولوضع قوتهم في خدمة المسيح والكنيسة. لكن الكنيسة نفسها ستتذكر، والبابوية ستتذكر أكثر لمدة أطول هذه النزعة الأوغسطنية في السياسة التي تعلمت كيفيه تطبيقها على أرض الواقع من شارلمان. وقداسة البابا؛ أي السلطة المطلقة للسلطات الروحية، سيتم تمريرها بالتالي من خلال الآداب، بالمجهود المسيحي الهائل للسلطات السياسية، ومن خلاله الحاجة التي كان تشعر بها الذراع الدنيوية إلى أن يحركه الجانب الروحي. سيعتبر الباباوات أنفسهم، سواء كانوا في صف السلاطين أو ضدهم، مسؤولين عن خلاص العالمين.

«إن العناية بالمهمة الملكية والإمبراطورية التي وهبها الله وجلالتنا السامية تفرض علينا أن نسل السيف ضد أعداء العقيدة من أجل إخماد نار فتنة الهرطقة...

إن أهل الهرطقة يريدون تمزيق رداء الله الذي لا خيط فيه: ذئاب ناهبون، أقبح الشياطين، أبناء الفساد، أفاع مسمومة.. لا يمكننا الصبر على شر هؤلاء الناس، أعداء الله وأعداء أنفسهم وأعداء البشرية؛ ولا نستطيع منع أنفسنا من سل سيف الانتقام بالحق ضدهم»[54].

إنه كلام الإمبراطور **فريدريك الثاني** في عامي 1223 و1238. تردد الكلمات الأولى لدستور 1238 نفس كلمات ونبرات وحركات جمل القديس أوغسطين. من خلال مراسيمه، وسع فريديريك على كل الإمبراطورة نمط القمع الذي تبنته تقاليد البلاد الشمالية لمدة نصف قرن ضد المهرطقين، أي الموت فوق المحرقة.

هو نفسه الإمبراطور الفيلسوف المعتنق لمذهب الشك، الذي كان يريد بمساعدة الزعماء المسلمين جعل مملكة صقلية إمارة مختلطة قادرة على تهديد روما؛ فهل سيكون أكثر خصوم الهرطقة عنادا وتصلبا؟

54 - *Monumenta Germaniæ Historica,leges,* T.II.p.327

وقد صدق من يعتبر أن هذا الإمبراطور ذا النزعة الشكية هو المؤسس الحقيقي لمحاكم التفتيش. منذ 30 سنة، كتب **المونسنيور دويس (Mgr Douais)**:

إن الذراع الدنيوي هو الذي يتحمل كل المسؤولية أمام تاريخ عن هذه العقوبة وهذا العقاب الجزائي: فالكنيسة لم تكن قد سنت في تلك الظروف عقوبة الإعدام؛ ونظرية جريمة المساس بالذات الإلهية المطبق على الهرطقة أقدم من عهد البابا غريغوري التاسع؛ إلا أنه لم يرفضها. وبما أن الذراع الزمني كان له نصيب من المسؤولية الحفاظ على الوحدة المسيحية، قد أصدر ضد المهرطقين عقوبة الحق، فلم يكن بإمكانه دفعها بعد ذلك»[55].

يؤكد **المونسنيور دويس** أن **فيديريك** كان يريد، بتعامله مع الهرطقة بهذه القسوة الفظيعة، أن يكسب لنفسه هيبة حامي الدين الصحيح بصرامة أكبر من صرامة البابا. لعل الدور الذي لعبه على رأس الأمة المسيحية قد دغدغ أحلام الطاغية عنده. فتعصبه يُفترض أنه من باب الأغوسطينية السياسية التي ازدادت صلابة بسبب طموح وقسوة روح فريديرك، الغريبة أصلا عن الحس المسيحي. هكذا تفسير يبدو مقبولا عندما ندرس روح فريدريك، إلا أنه لا يمكن أن يكون كافيا إن قدمناه على أنه هو سر ومفتاح مؤسسة التعصب، التي تدعى محاكم التفتيش. فالباباوات الذين نظموها، والهياكل الدينية التي أطلقت حركة آلتها، وطورت عملها، لم تخضع فقط للدافع النفسي ولنزوة إمبراطور شاب، قد اعتلى العرش في نهاية المطاف بمرسوم تتويج، تمت صياغته وتحريره مسبقا من قبل مجلس الرعاية البابوية. كما أن أوامر الحملة الصليبية ضد الكاثار صدرت قبل انتخاب فريدريك الثاني... ولكي نعرف حسن نية روح محاكم التفتيش أو لنقل لكي تعرف سرها، أليس الأفضل الانتباه فقط إلى نواياها المصرح بها أو المعمول بها، وإلى المبادئ التي صاغها لقضية قمع الضلال معاصره **القديس توما الأكويني؟**

تدمير شر وفساد الهرطقة هو غاية محاكم التفتيش؛ لكنها لا تقدم تعريفا للهرطقة. لقد قيل إن الهرطقة في مفهوم دواوين التفتيش والهرطقة في المفهوم اللاهوتي لا تصادفان عن المعنى: الهرطقة التفتيشية لا تضم فقط ما يخالف الوحي، بل كل ما يختلف مع الإيمان الإنساني، أو مع تعاليم الكنيسة، كما كان يقال وقتها. كانت دواوين التفتيش تبحث عن أتباع الهرطقة وناشريها والمبشرين بها في أية درجة من الدرجات، وتريد وقف نشاطهم وحماية المؤمنين من عدواهم. كان المطلوبون إلى عدالتها هم الكاثار المتعصبين، الزهاد الفرنسيسكان المدانين لغلوهم في الزهد، المرتدين الذين تم طردهم من الجماعة المسيحية، ولم يكفروا عن

55 - Mgr Douais, *l'Inquisition*, Paris 1906 ;p.142 et suiv

الخطيئة خلال العام، واليهود الذين عملوا على التبشير، أو عادوا إلى اليهودية بعد تعميدهم، والسحرة، وأخيرا بعض مجرمي الحق العام، كالزناة ومنتهكي الحرمات.

بهكذا شكل من القضاء ومن الأحكام تكشف محاكم التفتيش عن أصل من أصولها الحقيقية: إنها أشكال القصاص والتحقير التي كانت الكنيسة الأولى تفرضها على كبار المذنبين. طال هذا العرف إبان حكم سلالة الميروفنجيين، حيث كان المجتمع المسيحي، حيث كان الزوج الزاني على سبيل المثال يتحمل قصاص إذلال يدوم سبع سنوات. لم يكن جوهر العقوبات الكنسية والقانون الكنسي هو المبدأ الروماني في الحفاظ على وحدة السياسة والمجتمع.

كانت الغاية هي أن يجعل الناس يكفرون عن الذنب المقترف من خلال قصاص يصلح الإساءة إلى الله، ويصلح المذنب. ولذلك، كان الإعدام والبتر مستبعدا من العقوبات التي سنتها الكنيسة. **الكنيسة تمقت الدم**، هو مثل دارج وبديهة مقررة: «**القوانين الكنسية كما القوانين الزمنية تحرم إراقة دم الإنسان**»، يقول البابا ألكسندر الثاني. وفي عصر القديس لويس، نجد في كتاب **أعراف بوفيسيس** (*Coutumes de Beauvaisis*..) [56] عندما يعالج مسألة عقاب المهرطق ما يلي:

«**في مثل هذه الحالة يجب على العدالة العلمانية أن تساعد الكنيسة المقدسة: لأنه عندما تتم إدانة شخص باعتباره لوطيا بعد تحقيق الكنيسة المقدسة، يجب عليها أن تتركه للعدالة العلمانية التي يجب عليها أن تحرقه؛ لأن العدالة الروحية لا ينبغي لها أن تقتل أحدا**».[57]

وها هي ذي الطريقة التي تعتمدها محاكم التفتيش: يتم اختيار ممثليها الذين يكلفهم الكرسي الرسولي، من بين رجال الدين الفرنسيسكان أو الدومينيكانيين، المشهورين بعلمهم اللاهوتي، وأكثر بحكمتهم وتجربتهم في الأرواح. يتوجهون إلى البلاد المشتبه في هرطقتها وبدعتها. وهناك يعظون يبشرون، ويحضون الناس على الإيمان. وخلال مدة وعظهم، يجب أن تتوقف كل دعوة أو تبشير غير دعوتهم. بعد ذلك يشرعون في التفتيش، والتحقيق. وبهدف إتمام مهمتهم، كانت الصلاحيات التي حصلوا عليها من روما تسمح لهم بطلب والتماس مساعدة جميع السلطات الدينية والمدنية. وعند كل مقاومة لمطالبهم أو عصيان لأوامرهم، يُسمح لهم بمعاقبة صاحبها بالطرد من الجماعة؛ وإذا كان تعلق الأمر بالأمراء، يُتبع ذلك بالعزل. كما يمكنهم طرد رجال الدين غير المنصاعين، وحظر واستبعاد بعض الكنائس؛ لكنهم يأتون مع ذلك بمكافآت: صكوك الغفران يوزعونها على مساعديهم، من خدم وأقارب وميليشيات أو جماعة صوفية.

56 - مؤلف قانوني ضخم يتضمن قوانين وأعراف القرون الوسطى.

57 - Beaumanoir, les *Coutumes de Beauvaisis* ; éd , Beugnot, paris ;1842. T.I. p.157

فور وصولهم غير المعلن أو المنتظر، كانت المواعظ التي يلقيها المحققون عموما تثير اعترافات عديدة ووشايات كثيرة. مرسوم الإيمان كان يأمر الجميع بالوشاية بالجرائم ضد العقيدة؛ فيستدعي المحقق المشتبه فيهم للمثول أمام المحكمة. يؤدون القسم أولا لقول الحقيقة؛ وهو قسم خطير، يسهل الكذب فيه. وفي الحالات الخطيرة، يكون السجن لمدة طويلة سابقا مثول المعني أمام المحكمة، حيث يهيئ خلاله لاعترافاته. ثم تبدأ المحاكمة بعد ذلك: لا يكون هناك أي محام يؤازر المتهم. لماذا؟ لأنه لم يكن من حق أي محامٍ مهرطق أن يُسمع صوته، إذ يُخشى على المحامي ذي العقيدة الصحيحة من عدوى بدعة الأول؛ خاصة أن المتهم في نظرهم آثم يجب رده إلى طريق الصواب، أو مذنب وجب عليه العقاب.

فيجب عليه أن يقر بأن العقيدة التي أشهر إيمانه بها كانت ضلالة وخطيئة، ثم التوبة عنها، وإعلان الرغبة في التراجع وتجنب كل المناسبات الجديدة للسقوط في الخطيئة؛ ثم القبول مقدما بجميع القرارات التي سيصدرها القضاة. تدابير التكفير عن الذنب؛ أي الكفارات للوصول إلى المغفرة التي كان يفرضها القضاة كتدابير للصلح. يتم توكيل القضاة لخلافة البابا، فيرددون المراسيم البابوية، من أجل الصلح والكفارة وإبراء الذمة ورفع الطرد من الجماعة عن من يتخلى خيانة الهرطقة.

القبول بالتعذيب من قبل محاكم التفتيش في منتصف القرن الثامن عشر لم يأت من أجل العقاب، بل من أجل الحصول على اعترافات وكملجأ أخير يُلجأ إليه اضطرارا.

يتم إطلاق سراح المهرطقين غير النادمين ويُسلمون أو يعهد أمرهم إلى الذراع الدنيوية. لكن أدنى علامة توبة من قبلهم، وهم بين أيدي محاكم التفتيش، تعيد إليهم فرصة البقاء على قيد الحياة. وحتى وهم فوق المحرقة، تُلزم أية علامة من علامات التوبة المنفذ العلماني بإرجاعهم إلى ديوان التفتيش. أما المبتدع ثانية بعد توبته الأولى، فإنه يحرق دون صفحه أو فرصة توبة ثانية. يقول القرار إن «**الكنيسة لا تملك ضدهم أية وسيلة أخرى: يُعهد أمرهم إلى حكم المحكمة العلمانية**» هناك توصية شكلت دائما جزءا من هذا القرار الكنسي تضيف: «يجب ألا يُبتروا وألا يُقتلوا»..

لماذا هذا البند المتفرد؟

هل هو فقط من بقايا القانون والتشريع الكنسي القديم الذي يحرم حكم الإعدام؟ يبدو أن له بعدا أكبر من ذلك وقصدا صريحا مفاده: إننا نحن كهنة الكنيسة المقدسة، التابعين لمكتب اجتثاث الهرطقة والزندقة،

قد أتممنا مع المعاندين المرتدين المتنطعين كل واجبنا الكهنوتي: فقد دعوناهم، وأتينا بهم إلى الاعتراف، وأخبرناهم بضرورة التوبة والتكفير عما ذهبوا إليه؛ وهي مجهودات لا يُبادر إليها قضاة المحكمة الزمنية. وبما أننا استنفدنا طرقنا في استتابتهم، فلن نحتفظ به أكثر؛ وعلى المحكمة الزمنية أن تقوم بدورها تجاههم. والواجب الصارم للمحكمة الدنيوية هو الدفاع عن العقيدة وحماية وحدة الكنيسة؛ لكن لا دخل للكنيسة في هذا الذي نضعهم فيه بين يدي الدولة المسيحية التي تنفذه بحق وعدل.

ولا تختلف نتيجة حجج القديس توماس اختلافا كبيرا؛ إلا أنه يحدد مبادئه ليس فقط المتعلقة بالهرطقة، بل أيضا في نظريه الدولة. بالإضافة إلى ذلك، فموقفه المذهبي تجاه الوثنيين واليهود يستحق منا انتباها خاصا.

«يجب أن يعتبر في المبتدعة أمران: الأول من جهتهم، والثاني من جهة الكنيسة. الأمر المعتبر من جهتهم، صور الخطيئة التي لم يستوجبوا بها أن يفصلوا عن الكنيسة بالحرم فقط، بل أن ينفوا من العالم بالموت أيضا؛ فإن إفساد الإيمان الذي به تقوم حياة النفوس أفظع جدا من تزييف الدراهم التي هي قوام الحياة الزمنية.... والأمر المعتبر من جهة الكنيسة هو الرحمة لقصد اهتداء الضالين. ولهذا، فهي لا تقضي عليهم عاجلا، بل بعد الإنذار مرة أخرى وفق تعاليم الرسول بولس. أما إذا بقي المبتدع بعد ذلك مصرا على ضلاله ويئست الكنيسة من اهتدائه فإنها توجه عنايتها إلى خلاص غيره، وتفصله عنها بقضاء الحرم، ثم تتركه ليُستأصل من العالم بالموت بالقضاء العالمي (الزمني)»[58].

ما هي، إذن، درجة فظاعة هذا الجرم الذي يستحق الحرم من الجماعة والموت؟ إنه عقل ضال وخيانة، يقول **القديس توما**؛ فالتعميد حين يجعل منا مسيحيين يهبنا فضيلة الإيمان الفطرية.. والله لن يتركنا أبدا، إلا إذا بدأنا نحن في الابتعاد عنه. نحن مؤمنون، أي مخلصون؛ لقد وافقنا وانخرطنا في الحقائق في المسيحية، وقد وعدنا فعلينا الوفاء:

«فكما أن النذر اختياري، فإن الوفاء به اضطراري؛ كذلك اعتناق الإيمان اختياري، إلا أن التزامه بعد الاعتناق ضروري. لهذا، ينبغي إكراه المبتدعة على التزام الإيمان».[59]

باسم ماذا تتدخل الدولة؟

يعترف **القديس توما**، بشكل يختلف عن **القديس أوغسطين**، بالحق الطبيعي للدولة؛ فهو لا تمتلكه الرغبة العفوية لإعطاء الدولة وسلطاتها معنى غيبيا وميتافيزيقيا. فعندما يدرس في كتابه **الخلاصة اللاهوتية**

58 - Saint-Thomas, *Summa Theologica,q.XI,art.3*

59 - Saint-Thomas, *Summa Theologica,q.X,art.8*

(*Summa Theologica*) ما يتعلق بالقوانين الإنسانية، يتساءل: هل على القانون أن يكبح كل الانحرافات والعيوب؟ ليجيب بأنه لا يجب أن يكون القانون «**غير متناسب مع الطبيعة الإنسانية**». **فالبشر** في غالبيتهم ليسوا مُثلا كاملة للفضيلة؛ وبالتالي لا يجرم القانون كل الخطايا، بل فقط أفظعها وأخطرها؛ أي تلك الخطايا التي يمكن لأغلب الناس الامتناع عنها، وخاصة تلك التي تضر بالأقرباء وتلك التي يعتبر تحريمها ضرورة لاستمرار المجتمع الإنساني. يروم القانون المصلحة والخير المشترك، وبالتالي الفضائل التي يمكن أن يفرضها فرضا هي تلك التي تكون غايتها المباشرة أو غير المباشرة هي الخير العام المشترك.

هذه توضيحات إضافية مقتبسة عن كتاب **الحكومة الملكية**:

«يبدو أن غاية شعب حين يتوحد ليست هي أن يعيش وفق الفضيلة، بل عن طريق الحياة الفاضلة، يبتغي بلوغ رضا الله. وإذا كان في الإمكان بلوغ الغاية عن طريق فضيلة بشريه خالصة، سيكون من وظيفة الملك قيادة الناس إلى هذه الغاية. لكن وبما أن رضا الله، ليست غاية يمكن بلوغها من خلال الفضيلة البشرية الخالصة، فليست الحكومة البشرية هي التي ستقودنا إليها، بل الحكومة الإلهية. لا يمكن أن يكون ملك مثل هذه الحكومة من البشر، بل ملكها هو الله، أي سيدنا المسيح الذي يدخل الناس إلى المجد السماوي بجعلهم أبناء الله؛ ووزراءه هم القساوسة والبابا. القانون الجديد يعطي الكهنوت درجة أسمى، بما أنه يقود الناس إلى خيرات السماء. ولذلك، يجب على الملوك من أن يخضعوا للكهنة خدام قانون المسيح».[60]

يميز القديس توما بين مهمة الدولة ومهمة الكهنوت؛ لكنه يجعل الأولى تابعة للثانية. لا شك في أنه لا يوجد مسيحي يريد الموت لمذنب؛ «**غير أن بيت داوود لم يستحق أن يستولي عليه السلام إلا بمصرع ابنه ابشالوم في الحرب التي أثارها على أبيه. وكذلك الكنيسة الكاثوليكية فهي إذا كان هلاك البعض سببا لانضمام الباقين إليها، تشفي ألم القلب الوالدي بنجاة شعوب كثيرة**».[61]

المهرطقون المبتدعة هم كفار خونة يعون ما يفعلون؛ لقد خانوا الإيمان الذي وعدوا به وتلقوه من السماء. لكن هناك كفارا آخرين هم من يُخصون عادة باسم: الوثنيين. يقول القديس توما عن هؤلاء:

«لا ينبغي في وجه من الوجوه إكراههم على أن يؤمنوا؛ لأن الإيمان من أفعال الإرادة، إلا أنه يجب على المؤمنين إذا قدروا أن يكرهوهم على أن لا يصدوا عن الإيمان بالتجديف أو بخبث الكلام أو

60 - Etienne Gilson, *Saint Thomas d'Aquin, ed.Gabalda, 1925.p367 et suiv.*

61 - Saint-Thomas, *Summa Theologica,q.X,art.8*

بالاضطهاد الظاهر أيضا. ولهذا السبب، كثيرا ما يثير المسيحيون الحرب على الكفرة، لا ليكرهوهم على الإيمان؛ لأنهم لو انتصروا عليهم وأسروهم يتركون أمر إيمانهم لحريتهم، بل ليكرهوهم على أن لا يصدوا على الإيمان بالمسيح. ومن الكفرة من كانوا قد اعتنقوا الإيمان يوما وهم يقرون به، كالمبتدعة أو أهل الردة، وهؤلاء يجب إكراههم حتى بالعقوبة البدنية أيضا» [62].

وفي موضع آخر من **الخلاصة اللاهوتية**، يتساءل القديس توما: هل يجب التساهل مع الطقوس والاحتفالات الوثنية؟ يقول إنها هي فعلا خطايا والقبول بها فيه مسؤولية؛ لكن السياسة البشرية منبثقة عن السياسة الإلهية، فعليها اتخاذها قدوة في هذا الباب:

«فالله مع تناهي قدرته وخيريته يسمح بأن يحدث في الكون شرورا يقدر على منعها لو أراد لئلا يمتنع بامتناعها خيرات أعظم أو يلزم عنه شرور أقبح؛ فهكذا الحال في السياسة البشرية أيضا، فإن الرؤساء يحسنون في احتمال بعض الشرور حرصا على بعض الخيرات، أو خوفا من شرور أعظم... وعلى هذا، فالكفرة وإن خطئوا بممارسة طقوسهم، يجوز احتمال ذلك منهم إما لاجتلاب خير أو لاجتناب شر... لهذا السبب، احتملت الكنيسة أحيانا طقوس المبتدعة والوثنيين أيام كان جمهور الكفرة عديدا».

هل يجوز للمسيحي أن يُعمّد أطفال غير المؤمنين؟

لا يجوز، يجيب القديس توما:

إذا كان أطفال غير المؤمنين لم يبلغوا بعد سن الرشد فإن الحق الطبيعي يجعل بين أيدي الآباء أمر العناية بأبنائهم وتوجيه ما داموا لا يستطيعون رعاية مصالح أنفسهم؛ وبالتالي يكون معاكس للحق تعميد الأطفال ضدا على الإرادة الأبوية.

تسامح القديس توما في تجاه اليهود ليس أقل من تسامحه مع الوثنيين: «**اليهود كفار أيضا، فليحيوا احتفالاتهم وهم في كامل الحرية التي هي رؤية مسبقة من العقيدة الصحيحة. وبالتالي، لن يكون أبدا من تقاليد الكنيسة تعميد أطفال اليهود ضد رغبة آبائهم وعلى كره منهم، وفي ذلك تعريض إيمانهم للخطر منافات ذلك للعدل الطبيعي**»[63].

62 - Saint-Thomas, *Summa Theologica,q.X,art.10*

63 - Saint-Thomas, *Summa Theologica,q.X,art.12*

التسامح التقليدي للكنيسة تجاه الوثنيين السابقين على المسيحية لن تتوقف مظاهره في القرنين السابع والثامن الميلاديين. يحتوي كتاب أنسطاسيوس السيناطي [64]، **أسئلة وأجوبة حول الكتب المقدسة**، على حكاية طريفة. يذكرها على سبيل الجواب غير المباشر على سؤال وضع عليه: **هل تجوز الصلاة على الوثنيين الذين عاشوا قبل المسيح والامتناع عن لعنهم؟** يجيب:

لا تلعنوهم! واسمعوا ماذا وقع لرجل عالم كان يكثر من لعن أفلاطون الفيلسوف.. جاءه أفلاطون في المنام قائلا: «توقف عن لعني يا رجل، فإنك تسيء إلى نفسك. فقد كنت مذنبا، ولا أنكر ذلك. لكن بنزول المسيح إلى عالم الأموات، كنت أول من آمن به. لكن لا يجب عليك أن تعتقد نتيجة هذا الكلام إنه باب التوبة والتكفير تبقى مفتوحة في عالم الأموات. أبدا، فذلك لم يحدث إلا مرة واحدة، عندما نزل المسيح إلى عالم الأموات ليزور من ماتوا في أول الزمان».[65]

خلاص الفلاسفة الوثنيين لا شك فيه، يقول **بيار أبيلار** (Pierre Abélard)[66]: المفكرون الكبار بالنسبة إلى الأغيار (غير اليهود) هم بمثابة الأنبياء بالنسبة إلى بني إسرائيل. لقد عرفوا عقيدة التثليث وبشروا بها؛ فقد تحدث أفلاطون عن نبل الله وحلمه بطريقة تليق به أكثر من موسى؛ وبشر العرافون بمجيء المسيح؛ وآمن حكماء الوثنية بخلود الروح. لقد كانوا يهبون حياتهم للتأمل، وانشغلوا بالمحبة الخالصة: محبة الخير الأعظم في ذاته.

لاهوتيو القرن ثالث عشر يفضلون الحديث عن الآثار السعيدة على الوثنيين جراء الرحمة الإلهية. والقديس توما يستشهد بمقولات بعض الوثنيين التي تبرز ما يفترض معرفتهم بأسرار المسيحية. خاصة عندما يؤكد أن الوثنيين الذين خلصهم الله، كان الفضل في خلاصهم يرجع إلى إيمانهم الضمني؛ أي كما يقول، عندما أمنوا «**أن الله سيكون مخلص الناس حسب ما تبتغيه إرادته، وحسب ما أوحى به نفسه إلى بعض من استودعهم الحقيقة**» [67].

دانتي أليغييري كلاهوتي لم يتورع عن إثارة السؤال عن خلاص غير المؤمنين. ويقول إن الوثنيين الفضلاء في يوم الحساب «**سيُجرمون أشرار المسيحيين، عندما يفترق الجمعان إلى أصحاب الخلود في النعيم وأصحاب الشقاء الأبدي**». لكنها أولئك الكفار الناجين سيكونون قد آمنوا بطريقه عجيبة بالمسيح.

---

64 - أنسطاسيوس السيناطي هو قديس يوناني عاش في الإسكندرية، في القرن السابع الميلادي

65 - Anastas, Sinaït, Quaestiones,III.764

66 - فيلسوف فرنسي شهير وله الفضل في إنشاء جامعة باريس؛ كان شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر، ويعتبر ممثلا لأخلاق عصره وآدابه،

67 - Abélard, Theol. Christ.,lib II.p.175

هكذا، نجد أن **دانتي** قد جعل في الجنة الإمبراطور تراجان[68]، إلى جانب بطل **الإلياذة** ريفيوس الطروادي، الذي وصفة أوفيديوس بكونه «**أعدل العادلين، والإنصاف بعينه**». بينما غيرهم من حكماء الوثنية والفلاسفة والأبطال العادلين ومعهم صلاح الدين الأيوبي وابن سينا وابن رشد - فقط أبيقور خصه دانتي بنار الجحيم-، كلهم في الحلقة الأولى المحيطة بالهاوية.

هل فكر مسيحيو العصور الوسطى الذين عرفوا الإسلام في أن يروا أن هناك تناقضا صارخا بين تعصب المسلمين تجاه المرتدين الذين حكمهم الموت، وتجاه الكفار الذين يتم الجهاد ضدهم وقتلهم «حيث ثقفتموهم»، وبين التسامح القرآني، كما في الآيات:

«لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»

«وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن **شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**»

«ولو **شاء** ربك **لآمن** من في **الأرض** كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس»

«**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**».

إن التعصب المسيحي في القرون الوسطى ضد الهرطقة هو، في مجمله، تطبيق مقنن للمبادئ التي قبلها في النهاية أو اكتشفها ببهجة القديس أوغسطين: جدوى الإكراه الذي يداوي؛ ضرورة وجود الدولة ذات نية طيبة وإرادة مسيحية. كان القديس توما يلعن أهل الهرطقة بسبب الخيانة التي يراها جوهرية فيهم؛ كما تبدو له الدولة وكأنها الخادم الدنيوي للكنيسة. لم يستهدف التسامح غير وثنيي الأساطير، واليهود والمسلمين. كانت هذه القرون المنغمسة في تعزيز العقيدة وعلم الكلام، تحدد المفاهيم أكثر مما تحدث تطورا. فقط في القرن الخامس عشر، سيتطور الفكر الديني بخصوص التسامح ويتجدد ويلين.

68 - وهو ماركوس أليبيوس نيرفا ترينوس أغسطس (53 –117) ثاني الأباطرة الأنطونيين الرومان، والإمبراطور الروماني الثالث عشر (98 - 117)

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021